الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
للدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

12 العدد الثاني عشر
ديسمبر 2021

الخطاب النقدي النسوي للمرأة في بواكير النقد العربي القديم
دراسة في نماذج مختارة

د. محمد عبدالله منورآل مبارك*

Mmunwer@ksu.edu.sa

تاريخ الاستلام: 2021/08/20م	تاريخ القبول: 2021/09/14م

الملخص:

يتوجه هذا البحث إلى دراسة الخطاب النقدي النسوي في نماذج من بواكير نقد المرأة العربية للشعر العربي، في القرون الثلاثة الأولى من عمر النقد العربي، وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها تبرز لنا فاعلية المرأة العربية في توجيه مقولاتها النقدية نحو غاياتها وأهدافها المنحازة للجنس الأنثوي. وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد. ومباحث هي: بدايات النزعة النسوية في نقدنا العربي، وتطور تلك النزعة النسوية، والانتصار للنوع (الجندر) والنقد النسوي، والانتصار للذات والنقد النسوي، ثم اصطراع النوع (الجندر) والنقد النسوي، وتوصل البحث إلى عدد من النتائج منها: أن نقد المرأة النسوي كان موجها في الغالب لشعر الرجل الذي يتناولها فيه، ويصف فيه علاقته بها وعلاقتها به، وأن المرأة في نقدها النسوي كانت متأثرة بمواقف الشعراء في شعرهم منها سلبا وإيجابا، وليس بقدرات الشعراء الفنية في شعرهم، وأن النقد النسوي كان أسيرا للجوانب المضمونية من الشعر، ولا يراعي الجوانب الشكلية في كثير منه، وكان تعويضا من قبل المرأة عن شعورها بإقصاء المجتمع لها عن عالم الشعر الذي قصروه على الفحول.

الكلمات المفتاحية: الخطاب النسوي، النقد النسوي، نقد المرأة، الخطاب النقدي، الشعر العربي.

* أستاذ الأدب والنقد المشارك - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية.

DOI: 10.53286/2118-000-012-010

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
الآداب للدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

Feminist Critical Discourse of Women in Early Ancient Arab Criticism
A Study of Selected Models

Dr. Mohammed Abdullah Munwer Al Mubarak*

Mmunwer@ksu.edu.sa

Received on: 20/08/2021	Accepted on: 14/09/2021

Abstract:

This research aims to study the feminist critical discourse in models belonging to the early Arab women's criticism of Arab poetry, mainly, in the first three centuries in which Arab criticism started. The research has been divided into an introduction and a preface. The handled topics are: The beginnings of feminism in our Arab criticism, the development of that feminism, the victory of gender and feminist criticism, the victory for the self and feminist criticism, and the conflict of gender and feminist criticism. The research reached a number of results, including: The feminist criticism of women was directed mostly to the man's poetry in which the poet deals with women, describing the man relationship with the woman and the woman relationship with the man, and that the woman in her feminist criticism was affected by the poets' attitudes in their poetry, negatively and positively, and not by the poets' artistic abilities in their poetry. That kind of feminist criticism was captive to the substantive aspects of poetry, and does not take into account the formal aspects in many of it. It was a reparation by the woman for her feeling that society excluded her from the world of poetry.

Keywords: Feminist Discourse, Feminist Criticism, Criticism of Women, Critical Discourse, Arabic poetry.

* Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, King Saud University, Saudi Arabia.

مقدمة

يتوجه هذا البحث إلى دراسة الخطاب النسوي في نماذج من بواكير نقد المرأة العربية للشعر العربي في القرون الثلاثة الأولى من عمر النقد العربي، فقد وقف الباحث على عدد من النماذج النقدية للمرأة العربية في مدونات النقد العربي القديم[1]، وكانت تلك النماذج تشكل تيارًا نقديًا من وجهة نظر نسوية تنحاز بمقولاتها النقدية للنوع الأنثوي، وتمثل خطابًا نقديًا مثقلًا بالحمولات النقدية الفنية، التي تحاول الانتصار لذات الأنثى في مواجهة الذات الذكورية.

وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يحاول أن يبرز جانبًا مهمًا من مجهودات المرأة العربية النقدية منذ بواكير الخطاب النقدي العربي، وأن للمرأة حضورها المبرز ليس في إنتاج النقد الأدبي وممارسته فحسب، بل قد كان لها أثرها وفعاليتها في توجيه ذلك النقد الأدبي إلى الوجهة التي ترى أنه ينبغي أن يتوجه إليها؛ ليسهم في إثراء الخطاب النقدي العربي، ومن ثم إثراء الشعرية العربية وتطويرها[2]، وقد كان الاتجاه النقدي ذو النزعة النسوية واحدًا من تلك الاتجاهات النقدية التي طرقتها المرأة العربية في نقدها للشعر العربي؛ لتحقيق العدالة الفنية والنقدية بين الرجل والمرأة والذكر والأنثى، ومن ثم استعادة حقوقها الإبداعية والأدبية التي حاول المجتمع المنحاز للذكورة والذكر المعتقد بتفوقه النوعي سلبها إياها وتجريدها منها، وإذا كان الرجل قد استأثر بالشعر عامة، وبالغزل خاصة دون المرأة[3] فإن المرأة قد اجتهدت من جانبها لأن تستأثر بنقد الشعر، ووضع مقاييس الإبداع فيه وبخاصة شعر الغزل من خلال ذوقها النقدي[4] الذي بنت فيه مقاييس الغزل فيها، حين ارتضى الشعراء نقدها لهم، وأن تكون مرجعًا نقديًا للمتبارين والمتنافسين منهم، وبخاصة في تناولها لأوصاف الأنثى في غزل الشعراء وحكمها فيه[5].

ويهدف هذا البحث إلى الوقوف على نماذج من نقد المرأة العربية القديم مما يظهر فيه الحس النسوي، والانحياز نحو النوع الأنثوي في مواجهة الحس الذكوري، ودراسته، وتحليله، وتبيين سمات الخطاب النسوي فيه، وخصائصه المضمونية والفنية، مما له أثره على الخطاب النقدي النسائي

بخاصة، والخطاب النقدي العربي بعامة، والتعرف على طبيعة تأثيره على الإبداع الشعري العربي، وعلى صناعة المقاييس النقدية العربية للشعر العربي، كذلك يهدف البحث إلى الكشف عن مقدار انحياز المرأة للنوع الأنثوي في ذلك الوقت المتقدم من الحضارة والثقافة العربيتين، ومعرفة ما إذا كانت المرأة في تلك الحقبة من حياة الأمة العربية تستشعر مثل تلك المعاملة المجتمعية لكل من الأنثى والذكر، وما إذا كانت المرأة في ذلك الوقت من حياة الحضارة العربية تدرك وتعي وضعها الاجتماعي، وكان لديها ما يكفي من الحرية والإرادة في التعبير عما تحمله من رضا أو سخط على تلك الحياة التي كانت تحياها، وعبرت عنها في ذلك الاصطراع الجدلي الذي كان يسود العملية الإبداعية، والأحكام النقدية الفنية التي كانت تواجهه بها، وأثر ذلك كله على العملية الإبداعية الشعرية وما يواكبها من حركة نقدية فنية.

وكان من أسباب البحث في هذا الموضوع ما وقف عليه الباحث من نصوص ونماذج نقدية تحمل في طبيعتها المضمونية والفنية الحس الانحيازي لنوع الأنثى (النسوية) والتوجّه نحو دراستها وتحليلها، والوقوف على أبرز سماتها وخصائصها الفنية.

كذلك لأن هذا النوع من البحث النقدي مما يخص مشاركة المرأة في النقد العربي القديم لم يسبق أن أفرد بدراسة علمية منهجية، تدرسه وتحلله وتكشف عن وجوده أولًا، ثم دراسته وتحليله والتعرف على أبرز سماته وخصائصه الفنية والمضمونية، كذلك فإن هذا البحث الذي سوف يتناول جانبًا مهمًا من مجهودات المرأة العربية النقدية، يكشف عن صوتها النوعي (الجندري) ويساعد على إبراز مجهودات المرأة العربية في النقد العربي القديم وتوجيهه الوجهة التي تريدها المرأة الناقدة، ومثل هذه الدراسات التي تبرز وتظهر مجهودات المرأة الأدبية والنقدية وأثرها في توجيه الخطاب النقدي العربي ما زالت بحاجة إلى إبرازها وإظهارها على مستوى الدرس الأدبي والنقدي، ولقد نال الأنثى في تاريخ ثقافتنا العربية شيء من النظرة الدونية لجنسها حتى على المستوى الإبداعي الأدبي[6]؛ ولذلك فإن هذا البحث يحاول إبراز رأيها هي باعتبارها صاحبة حق في تلك النظرة في جانبها النقدي الأدبي.

وتتجلى المشكلة العلمية التي يسعى البحث إلى إثارتها والكشف عنها ودراستها في أن هذا الجانب المهم من نقد المرأة العربية القديم وهو الخطاب النسوي في نقدها لم يسبق إظهاره أو إبرازه أو التعرف عليه وبيان سماته وخصائصه الفنية، وأثره في الخطاب النقدي العربي على الرغم من وجود نصوص نقدية متناثرة ومتفرقة في مدونات النقد العربي القديم، وهي نصوص نقدية لها أهميتها وقيمتها العلمية، مستورة ومغيبة في مدوناتها من كتب الأدب والنقد، ولو أُبرزت ودُرست دراسة علمية؛ لكان لها أثرها في إبراز مجهودات المرأة العربية النقدية، والخطاب النقدي العربي بعامة؛ لذلك تسعى هذه الدراسة للقيام بمحاولة الكشف عن هذه القضية العلمية النقدية، ودراستها دراسة علمية، يكون لها أثرها في حركة النقد النسائي العربي، والنقد الأدبي العربي بعامة، وسمات وخصائص ذينك الخطابين النقديين في أدبنا العربي.

ويفترض البحث من خلال النظر في مدونات النقد النسائي العربي القديم أن هناك اتجاهات نقدية للمرأة العربية في النقد العربي القديم تحمل خطابا نسويا ينزع للذات الأنثوية وينحاز لقضاياها يقابل ما تواجه به من تهميش لذاتها الأنثوية في المجتمع، ولما يمكن أن تنتجه من إبداع شعري أو أدبي، وحاولت هي في خطابها النقدي هذا أن ترفع من شأنها في المجتمع، متخذة من تصدرها النقدي في الشعر في هذا المنحى النقدي النسوي المنحاز لذاتها الأنثوية وسيلة لاستعادة مكانتها الاجتماعية والحضارية في الحياة.

ويود الباحث في بحثه هذا النظر في وجود هذه الفرضية العلمية وتحليلها من خلال نماذجها النقدية النسوية ودراستها وتحليلها تحليلًا فنيًا، والكشف عن سماتها وخصائصها الفنية، وتلمس آثارها الفنية والمضمونية في الخطاب النقدي النسائي والخطاب النقدي العربي.

وسوف يعتمد الباحث في تناوله لهذه القضية النقدية على المنهج الوصفي التحليلي الذي يرصد الظواهر النقدية النسوية من خلال نماذجها ويدرسها ويحللها من منظور فني جمالي، مستعينًا بالمنهجين النفسي التحليلي والسوسيولوجي الاجتماعي، اللذين يربطان الأدب والنقد بسياقيهما

النفسي والمجتمعي، فالمنهج النفسي ينظر لتلك المقولات النقدية النسوية بوصفها مظهرًا من مظاهر الرغبة المكبوتة التي حاولت الناقدة العربية التنفيس عنها من خلال مقولاتها النقدية الموحية بها[7]، أما المنهج الاجتماعي فينظر للأدب (والنقد فرع منه) على أنه ظاهرة اجتماعية[8]، يُدرس بين المناخات والسياقات الاجتماعية العامة[9]، وينهض بدراسته علم الاجتماع الداخلي الذي يدرس الأدب في ضوء المتصورات السوسيولوجية[10].

وبناء على مشكلة البحث التي يحاول الباحث دراستها، وفرضية البحث التي يفترض الباحث أنها سوف تساعد على تلمس ما يُجلي ويوضح مشكلة البحث ويزيل ما يحيط بها من غبش معرفي فإن الإجابة على ما سبق وتوضيحه يقتضي طرح عدد من الأسئلة، التي سوف يسعى البحث للإجابة عنها، ومن تلك الأسئلة:

1- ما مدى وجود مادة نقدية ذات نزعة نسوية في تراثنا الأدبي والنقدي الخاص بالمرأة؟
2- ما مقدار القيمة الفنية والموضوعية التي يمكن للبحث النقدي الإفادة منها من خلال هذا البحث؟
3- لماذا نحت تلك المقولات النقدية النسائية المنحى النسوي في خطابها النقدي؟
4- ما أثر المجتمع على إنتاج مثل هذا الخطاب النقدي المنحاز للنوع الأنثوي؟
5- ما الأسباب التي أنتجت لنا مثل هذا الخطاب النقدي النسوي؟
6- ما أبرز سمات وخصائص ذلك الخطاب النقدي النسوي على مستوى المضمون وعلى مستوى الشكل؟
7- ما أثر ذلك النقد النسوي على الخطاب النقدي النسائي بخاصة والخطاب النقدي العربي بعامة؟
8- هل استطاع الخطاب النقدي النسوي للمرأة العربية أن يغير من صورة المرأة النمطية القابعة في الذاكرة الإبداعية الشعرية، ويحيلها إلى صورة جديدة ترتضيها المرأة الناقدة[11].

وتشكل مصادر الأدب العربي ونقده القديمة ذات القيمة العلمية الأصيلة صلب المدونة النقدية التي سوف يعتمدها البحث ويستخرج منها أبرز نماذجه النقدية ذات المنحى النقدي النسوي المنحاز للنوع الجنسي الأنثوي، ومن أبرز تلك المدونات التراثية:

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والمعاني الكبير لابن قتيبة، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، والأمالي والذيل والنوادر لأبي علي القالي، وبلاغات النساء لابن طيفور، والتنبيه على الأمالي لأبي عبيد البكري، ومصارع العشاق لجعفر القارئ، وزهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني، والمجموع اللفيف لابن هبة الله الأفطس، وأشعار النساء للمرزباني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، وغيرها من المصادر والمراجع العربية القديمة التي حوت المقولات النقدية النسائية العربية القديمة للشعر.

وقد حاولت استقراء وتتبع من سبقني من الباحثين فيما يخص النقد النسائي العربي القديم في خطابه النسوي -بقدر ما استطعت- فلم أجد أن أحدًا قد تناول الاتجاه النقدي النسوي للمرأة العربية في بواكير نقدها العربي بالدراسة والتحليل في بحث خاص ومستقل بهذا المنحى من الخطاب النقدي النسائي، وما وجدت من أبحاث تتعلق بدراسة نقد المرأة العربية، كانت أبحاثا تتناول نقد المرأة بشكل عام قديما وحديثا دون تخصيص أو دراسة مستقلة لنقدها القديم في جانبه النسوي الأيديولوجي المنحاز لنوع الأنثى، ولكن تلك الأبحاث أضاءت لي الدرب لدراسة هذا المنحى الخاص بالنزعة النقدية النسوية لدى المرأة العربية في نقدنا القديم، من تلك الدراسات:

1- دراسة بعنوان المرأة ونقد الشعر في بدايات النقد العربي: قراءة لنصوص النقد المنسوبة إلى سكينة بنت الحسين، للباحثة سعاد بنت عبد العزيز المانع، من منشورات نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي عام 1435هـ، وهي دراسة كما نلاحظ خاصة بنقد امرأة واحدة هي سكينة بنت الحسين تناولت نماذج مما يروى لها من نقد على وجه العموم دون اهتمام أو تخصيص أو

تركيز على نقدها النسوي، أما بحثي هذا فقد وجه لدراسة الخطاب النسوي للناقدات العربيات.

2- بحث منشور في مجلة المخبر الصادرة عن جامعة بسكرة الجزائرية العدد (10) 2014م، بعنوان: جهود المرأة العربية في النقد الأدبي القديم، وهذا البحث كما نلاحظ وجّه اهتمامه لعموم مقولات المرأة النقدية دون تخصيص لاتجاه نقدي محدد يجمع نماذجه ويدرس خصائصه وسماته الفنية كما هو حال دراستي هذه التي سوف توجّه اهتمامها لدراسة الخطاب النسوي في النقد النسائي القديم.

3- بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى مج (5) ع(20)، بعنوان: المرأة الناقدة في الأدب العربي، للباحث محمد أحمد المجالي، وهو يتناول مجهودات المرأة العربية النقدية في العصر الحديث وليس مخصصا لدراسة النقد القديم في اتجاهه النسوي.

4- كتاب اشتمل على عدد من المقالات تحت عنوان (النقد الأدبي النسوي) لمجموعة من الباحثين والباحثات في مؤسسات أكاديمية غربية، ترجمة هالة كمال، صادر عن مؤسسة المرأة والذاكرة (ط1، 2015م) وهو يتناول في موضوعه مقالات وشهادات نظرية تحاول أن تؤسس للنقد الأدبي النسوي العالمي في سياقات اجتماعية وثقافية عرقية متنوعة ومتباينة عامة ليست خاصة بزمن ولا قطر ولا جنس عرقي بعينه، وهذا يختلف عن موضوع بحثي الموجه لنقد المرأة العربية القديم للشعر العربي، والخاص بالمرأة العربية.

مما سبق يتضح ان الخطاب النقدي النسوي للمرأة العربية في مرحلة البواكير الأولى من عمر النقد العربي لم يُدرس ولم يُخصص بدراسة مستقلة، تدرسه في سماته وخصائصه الفنية، وهذا هو ما سوف ينهض به هذا البحث، ويحمد لهذه الأبحاث السابقة أنها نبهت الباحث لمثل هذه الدراسة، وسوف تضيء له الطريق لدراسة هذا المنحى النقدي النسوي من نقد المرأة العربية للشعر في نقدنا العربي القديم.

تمهيد:

يدور مدلول الخطاب على المراجعة والمواجهة بالكلام[12]، وعلى التعبير عن الأفكار بالكلمات[13]، كما يدل مصطلح النسوية على الوعي بحقوق المرأة في الحياة التي تشارك فيها الرجل

والمطالبة بها بعد أن أدركت المرأة ووعت وجود أنظمة ومفاهيم وممارسات تميز الذكر ضد الأنثى[14]، ومن ثم فإن "الخطاب النقدي النسوي" الذي نحاول دراسته في هذا البحث خطاب يحمل في أثنائه مواجهة الذكر والثقافة الذكورية بالكلام الناقد للإبداع الشعري، الحامل لتلك الأفكار الذكورية، المطالب بحقوق المرأة، ووعيها بوجود مفاهيم وممارسات منحازة للذكر في مقابل الأنثى، وتوضيح تلك الممارسات في خطاب نقدي للشعر تحاول المرأة من خلاله استعادة تلك الحقوق التي حاول الذكر والمجتمع والعرف الذكوري سلبها إياها. والنقد الأدبي النسوي تبلورت ملامحه داخل النظرية الأدبية النسوية، وارتبط المصطلح بحركة تحرير النساء؛ مرتكزا على أساس من العدالة والمساواة بين الجنسين، كما اهتم النقد النسوي بصورة المرأة في الأدب[15]، وقد حفل خطابنا النقدي العربي القديم بمقولات نقدية للمرأة تشي بهذا الخطاب النسوي الذي يمتلك أبعادا نوعية (جندرية) وتحررية حقوقية تميزه عن غيره من الخطابات[16].

والنقد النسوي غير النقد النسائي، فالنقد النسائي نقد محايد غير منحاز للجندر الأنثوي، أما النقد النسوي فهو نقد منحاز للجندر الأنثوي ضد الجندر الذكوري، وينتج نصا نقديا يتبنى المنظور النسوي، ويعبر عن وعي نسوي، هو إدراك النساء لوضعهن الثانوي في المجتمع باعتباره وضعا ظالما مفروضا عليهن، ورفضه، والسعي لتغييره نحو بديل قائم على العدل والمساواة[17]، وهو وعي الناقدات "بأنهن يقعن في حيز ثانوي داخل التراث والإبداع الأدبي بسبب انتمائهن إلى جنس النساء، والسعي إلى تحقيق قيم إبداعية بديلة للنظام الاجتماعي أساسها العدل"[18].

والخطاب إما مباشر أو ضمني، وغالبا ما يكون الخطاب النسوي القديم خطابا ضمنيا، كذلك فإن الخطاب النقدي النسوي هو خطاب فوق خطاب كما يقول سعيد علوش[19] لأنه يراجع ويواجه ويوضح الخطاب الشعري الموجه إلى المرأة، والواصف لها في شعر الرجل، وهو في الثقافة العربية القديمة يمكن تسميته خطابا نسويا؛ تجوزا، بخاصة في خطاب المرأة النقدي؛ لأنه على وجه الحقيقة أقرب إلى الخطاب الذاتي المنحاز إلى النوع والأنوثة أكثر منه خطابا نسويا بمفهومه المعاصر

القائم على (الجندرية الأيديولوجية) وهي زعزعة معطى الهويات البيولوجية، وخلخلة تلك المهارات الخاصة التي تعلمتها المرأة وطورتها في إطار أدوار النساء كزوجات وأمهات[20].

فقد ظهر الخطاب النقدي النسوي (Feminist Criticism) كخطاب منظم ومؤدلج في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهو خطاب معتمد على حركات تحرر المرأة التي طالبت بحقوقها المشروعة في العالم الغربي، وهو وثيق الصلة بحركات النساء المطالبة بالمساواة والحرية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع الرجل[21].

وكان مصطلح النسوية بهذا المفهوم قد ظهر أول ما ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا، وقد أدت دراسة الأدب من منظور نسوي في الستينات والسبعينات من القرن العشرين إلى مراجعة تاريخ الأدب (ومنه تاريخ النقد الأدبي القديم) ومراجعة المعايير الجمالية[22]، وإذا كانت النزعة النسوية في الغرب قد ظهرت متأخرة في (القرن التاسع عشر) فإنها في الثقافة العربية قد نطقت بها مصادر الأدب العربي القديم ونقده في تلك النزعة المنحازة للنوع الأنثوي التي سوف نراها في النقد العربي القديم على لسان المرأة من العصر الجاهلي في (القرن السابع الميلادي) فلقد كان المدونون العرب يدونون في (القرن الثامن الميلادي) صوت المرأة العربية الناقد للمركزية الذكورية من خلال مقولاتها النقدية، المؤكدة لحقوق النوع الأنثوي فيما يبدعه وينتجه الرجل من الشعر والأدب.

فقد سادت في ذلك الوقت من عمر الإبداع العربي ونقده نظرة دونية للأنثى في مواجهة الذكر، تستضعف الأنثى وتخشى عليها من الإبداع الشعري الذي يقوله الرجل في أوصافها ويصف علاقته بها وعلاقتها به، ولذلك فقد كانوا يحجبون عن النساء مثل ذلك الشعر الذي يتغزل فيه الرجال بالنساء، فقد روى أبو الفرج الأصبهاني أن من رجالات قريش من كان يمنع إدخال شعر عمر بن أبي ربيعة على النساء خشية عليهن من أن يفتن به، لما كانوا يعتقدونه من رقة في قلوب النساء وضعف في آرائهن، وكان ابن جريج -فيما يرويه الأصبهاني- يقول: ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة، وقال هشام بن عروة: لا تروا فتياتكم شعر ابن أبي ربيعة، لا

يتورطن في الزنا تورطا[23]؛ لذلك فقد وجدنا الناقدات العربيات يواجهن هذه الذكورية المجتمعية بنزعات نقدية نسوية لشعر الرجل، ويكشفن عن أوجه الخلل في صورة المرأة في الشعر العربي القديم ونقده وتحليل مظاهره بمقولاتهن النقدية، ويدعون بنقدهن إلى المقاومة والتغيير في سبيل تحقيق العدالة بين الجنسين في الحقوق والواجبات[24]، متجاوزات ذلك المنظور الذكوري في النقد الذي جعل من المرأة المبدعة مجرد صدى لما يكتبه الرجل، والنظر للإبداع النسائي باعتباره جزءًا من أدب (أقلية مجتمعية) تعيش ظروفا خاصة تنعكس على رؤيتها وتصورها للأشياء والعالم، على حد تعبير رشيدة بنت مسعود[25].

وإذا كانت مقولات النقاد والنقد الأدبي منحازة في رأي البعض بصورة ضمنية لجنس الذكر بشكل كامل لأنها خاضعة لمعايير الرجل وتحليلاته وتقييماته، وتنطوي على اهتماماته وافتراضاته القلبية، وأنها مدونة بلغته[26] فإن المقولات النقدية النسائية في الشعر العربي القديم وفي فن الغزل بخاصة قد نطقت بها المرأة وارتضاها الرجل نفسه كما هي في تلك الحكومات النقدية التي كانت في الجاهلية، وفي تلك المجالس النقدية النسائية التي عرفتها مواطن النقد الأدبي القديم للشعر في مكة والمدينة والعراق والشام[27].

فإذا كانت الناقدة النسوية الغربية قد بدأت تركز على صورة المرأة في الأدب في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته (1963-1971م)[28] فإن الناقدة العربية قد عالجت صورة المرأة في الشعر العربي ونقده منذ بواكير النقد العربي القديم في القرنين (السابع والثامن) الميلاديين، كما هو عند الخنساء السلمية، وسكينة بنت الحسين، وعزة كثير، وبثينة جميل، وغيرهن من الناقدات العربيات في القرون الثلاثة الأولى من عمر النقد العربي، اللاتي شكلن جانبا من نقدنا العربي القديم، وسعين في نقدهن إلى الكشف عن أوجه الخلل في صورة المرأة في الإبداع الشعري العربي ونقده، ومقاومة ذلك الخلل وتغييره؛ من أجل تعديل تلك الصورة وتحقيق العدالة بين الجنسين، بما يعيد للمرأة صورتها المضيئة والمشرقة التي يرضين بها بحسب أذواقهن ورؤاهن الفنية والجمالية.

فقد نظرن في وضع النساء في النص الشعري ذواتًا وموضوعات، وواجهن ما يقع عليهن من تهميش وتشويه وصمت وإسكات، وحددن أوجه الصراع بين الرجل والمرأة داخل النص الشعري، وما يحمله النص من نبرة استضعافية، أو استعلائية[29]، أو فضائحية، أو مدحية، أو هجائية، أو تجميلية، أو تقبيحيَة، ونحوها من الخطابات الواصفة للمرأة، والواصفة لعلاقاتها بالرجل.

الخطاب النقدي النسوي للمرأة في بواكير النقد العربي:

يمثل النقد النسوي اتجاهًا مهمًا في نقد المرأة العربية القديم للشعر عامة، ولشعر الرجل خاصة، ولقد كان ذلك الخطاب النقدي متأثرًا بموقف الشاعر من المرأة في شعره، فإن كان يظهر في شعره احترامًا لها ويعاملها بذوق ولطف فالحكم من الناقدة تجاه شعره يكون بالجودة والتقدم، وإن كان قد أخفق في وصفها في شعره، أو تعمّد الانتقاص منها ومن جمالها الحسي أو المعنوي فغالبا ما ينحرف النقد نحو الحكم بالضعف وعدم الجودة، بمعنى أن نقد المرأة النسوي في الخطاب النقدي العربي القديم كان نتاجًا لموقف الرجل الشاعر منها، ومتأثرا بطبيعة علاقته بها في شعره من حيث وصفه لها ولجمالها الحسي والمعنوي إيجابا وسلبا، ولو كان ذلك النقد على حساب الشعر وقيمته الفنية.

إن ذلك الخطاب النقدي بنسويته لم يكن يراعي قدرات الشاعر الفنية وتجويده الشعر إذا ما حاف في شعره على الأنوثة التي هي من طبيعة الناقدة وجبلتها الحياتية، وهذا يجعلنا نحكم على غلبة الجوانب العاطفية والنسوية والانحياز للذات الأنثوية على حقيقة إبداع الشاعر إن لم يوافق هوى الناقدات وانحيازهن لأنوثتهن، ولذلك عبّرن غالبا في نقدهن عن اتجاههن النسوي، وهذا النوع من النقد يكاد يكون منحازا لمضامين الشعر دون شكله وبنائه الفني، لغلبة النسوية على مواطن الحكم النقدي الغائرة في أعماق الأنثى وما تحمله من عواطف أنثوية، ولما للنسوية والانحياز للذات من بُعد (أيديولوجي) يدفع الناقدة -دون أن تتعمد- التضحية بالفن في سبيل تحقيق منازعها (الجندرية) وأهوائها الأيديولوجية ورغباتها النفسية السيكولوجية القارة في قرارة ذاتها الأنثوية، وهي تتوق بهذا نحو استعادة حقوقها الذاتية.

بدايات النزعة النسوية في نقدنا العربي:

لعل أول ناقدة نسوية عربية انتصرت للأنوثة في مقولاتها النقدية ضد الذكورة هي الشاعرة الخنساء، فقد روى صاحب الأغاني أن الخنساء وفدت على خيمة النابغة النقدية وأنشدته من شعرها عقب ما أنشده كل من الأعشى وحسان بن ثابت، فقال لها النابغة: لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الناس! أنت والله أشعر من كل ذي مثانة، قالت: والله ومن كل ذي خصيتين، فقال حسان أنا والله أشعر منك ومنها[30].

إن هذه المنافرة النقدية بين الأنوثة ممثلة في الخنساء والذكورة ممثلة في كل من النابغة وحسان هي اصطراع نقدي واضح بين الأنوثة والذكورة، وهي أحكام نقدية مثقلة بالنسوية من جانب الخنساء والذكورية من جانب النابغة وحسان.

وتعد الخنساء في تقديري أول ناقدة نسوية في الخطاب النقدي العربي بخطاب نسوي صريح ومباشر، حيث انتصرت في خيمة النقد الجاهلي لذوات المثانات (الإناث) من ذوي الخصيات (الذكور) بقولها للنابغة بأنها كذلك أشعر من ذي خصيتين، ولقد كان النابغة في هذه الحكومة النقدية ذكوريا بالمعنى النقدي والأيديولوجي للذكورة، حيث ذكر في حكمه النقدي أن الخنساء أشعر الناس ثم ما لبث أن نقض حكمه هذا بما تغلغل داخل ذات ذكورية تتمثل في استحالة أن تتفوق الأنثى على الذكر في ثقافته العميقة، ولذلك نقض حكمه بشاعرية الخنساء المطلقة بإنشاد ذكرٍ قبلها له.

والذكورة في تقديره صفة ارتبطت في عميق ذاته وثقافته بقول الشعر والتقدم فيه ولذلك حاول أن يحفظ للأنثى شاعريتها وفحولتها الشعرية فجعلها فحلة على ذوات المثانات/ النساء، وفي طبقة أدنى من ذوي الخصيات؛ ولذلك تحركت نسوية الخنساء ونزعتها الأنثوية فدفعت ذكورية النابغة الآتية من دوافع بيولوجية (ذي مثانة) بنسويتها فصرحت بأنها أشعر من ذي خصيتين كذلك، إن هذه الحادثة النقدية هي دليل واضح وجلي على حضور الخطاب النسوي بكل ما فيه من وضوح

وتجلٍّ في الخطاب النقدي العربي، وأن النسوية العربية -وإن ظهرت متأخرة في ثقافتنا العربية في العصر الحديث ومتأثرة بثقافة الغرب في هذا الاتجاه- قد كان لها حضورها في شكل منازع نقدية وإشارات صريحة في تراثنا النقدي الأدبي كما هو عند الخنساء.

إن هذه المفاخرة النقدية في عكاظ بين الخنساء والنابغة لتؤكد أن خطابنا النقدي العربي النسائي قد اكتنز بالصوت النسوي ليغدو نوعًا من الكيد والمعاندة لظروف القهر والتصدي والتحدي لسطوة الاستعباد[31] الذي كانت تمارسه الثقافة الذكورية السائدة في المجتمع العربي القديم على الأنثى؛ ولذلك كان الخطاب النقدي النسائي العربي من أولى الخطابات الثقافية التي ظهرت فيه النسوية وتجلت مدافعة عن النوع الأنثوي العربي.

تطور النقد النسوي في العصر الإسلامي:

تُعد الناقدة سكينة بنت الحسين من أبرز الناقدات اللاتي حضر في نقدهن البعد النسوي، والتوق للانتصار للأنثى وأنوثتها المهضومة أو المستلبة من قبل الشاعر الذكر، وما كان يصدر عنه من مفاهيم تهمّش المرأة أو تهضم حقوقها الاجتماعية الحياتية وبخاصة في علاقتها بالرجل، والسبب في تقديري سيدركه الناظر في مقولاتها النقدية التي تظهر فيها انحيازها للذات الأنثوية بجانب ما كانت تتمتع به -كما تقول بنت الشاطئ- من ملاحة وجمال ومكانة اجتماعية في عصرها ومجتمعها[32]، ولذلك فهي قد تأنف إن لم يعبر شعر الشاعر تجاهها أو تجاه بنات جنسها عن تلك المكاسب الجمالية والذاتية التي كانت تحظى بها، أو أن يرتقي لمكانتها الاجتماعية التي كانت تحتلها في مجتمعها، ولعلها كانت ترى في تناول الشعراء للأنثى ووصفهم لها تناولا ووصفا ينالها من قريب أو بعيد، ولذلك يرى زكي مبارك أن نقد سكينة لشعرية الشعراء الرجال كان متأثرا بالغيرة على الجنس والدفاع عن النوع.، وبالعطف على المرأة بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية[33] أي إنها كانت تتعصب لبنات جنسها من الإناث، ولذلك سوف نلمس في نقدها صدى للاتجاه النقدي النسوي.

لقد تجلى خطاب سكينة النقدي النسوي كذلك في صرامتها في أحكامها النقدية على الشعراء فيما نالوا فيه من الأنثى في أشعارهم الواصفة لها، فعلى الرغم من تفضيلها للشاعر جرير على سائر الشعراء المعاصرين له، وانحيازها لشعريته المتصالحة مع الأنثى في أوصافه لها في بعض شعره[34] فإنها قد ساءها شعره الذي رد فيه زائرته وقد تكلفت مشاق المجيء إليه زائرة له آخر الليل[35] في قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

فقالت له في نقد نسوي: "أفلا أخذت بيدها فرحبت بها، وأدنيت مجلسها، وقلت لها ما يقال لمثلها، أنت عفيف وفيك ضعف"[36]، فغضبت من رده لها، ولما أظهر في شعره من عدم احتفاء وتكريم للأنثى ومشاعرها، ونقدته نقدا متأثرا بانحيازها للنوع الأنثوي يشي بنسوية نقدية حين حكمت بعدم جودة شعره الواصف لهذه المقابلة، فقالت له: فما أحسنت، ولا أجملت، ولا صنعت صنيع الحر الكريم، لا ستر الله عليك كما هتكت سترك وسترها، ما أنت بكلف ولا شريف حين رددتها بعد هدوء العين وقد تجشمت إليك هول الليل، هلا قلت[37]:

طرقتك صائدة القلوب فمرحبا نفسي فداؤك فادخلي بسلام

وفي رواية أنها قبّحته وقبحت شعره معرضة بموقفه هذا من أنثاه بقولها: أي ساعة أحلى للزيارة من الطروق[38]، فهي تتهمه في شعره وفي سلامة ذوقه وفي موقفه الذكوري الجلف من الأنثى التي جاءته حاملة الحب والشوق والود.

إن هذا الخطاب النقدي هو خطاب اقتصاص للمرأة من الرجل وللأنوثة من الذكورة، وانحياز للنوع انحيازا جعلها تتهم الذكورة اتهامًا يضعها في ضد مع الإحسان، والجمال، والحرية، والكرم، والحب، وعلو المقام من الشرف، حتى أن عفة جرير لم تشفع له عند نسوية الناقدة، ولا سلوكه السوي الذي عرف به مع المرأة، بل إنها أمعنت في نقدها لذكورية جرير هذه بأن وصفته بضعفه أمام الأنثى، وسوء أدبه في مخاطبة النساء كما تقول بنت الشاطئ[39]، وقللت من عطيته في موقفه الشعري هذا من الأنثى.

الانتصار للنوع (الجندر) والنقد النسوي:

إن الناظر في موقفَي سكينة من جرير المتباينين المتضادين وشعريته يدرك أن ذلك الموقف المتناقض مدحًا حينًا وإعجابًا به وبشاعريته حينا آخر، وتقبيحًا حينًا وازدراءً له ولشاعريته حينا آخر كان محرّكه والدافع له موقف جرير في شعره من الأنثى، بمعنى أن الانحياز لنوع الأنثى من جانب سكينة هو المحرك لتلك الرؤى النقدية، فعندما كان جرير مادحا متذللا خاضعا مُظهرا حبه وتقديره واحترامه للأنثى مدحته سكينة ومدحت شعره وفضلته على الفرزدق بل على عموم شعراء عصره، وعندما أساء جرير نفسه استقبال الأنثى، وردها عن زيارته، ولم يحسن ملاطفتها، وقابلها بشيء من عدم الاهتمام والاحترام، قبحته وقبحت شعره.

لقد كانت النسوية المنتصرة للنوع هي المحركة لتلك المواقف النقدية من السيدة سكينة مثلما كان فحش الفرزدق في غزله بالأنثى وإفشاء مغامراته معهن لإذلالهن بهتك سترهن وراء نقد سكينة له نقدا قويا يعبر عن انتصارها لأنوثتها وأنوثة صويحباته ممن أخلصن له وقربنه، فأصبح يفشي أسرارهن، ويهتك سترهن، ويستعرض فحولته وذكورته على حساب الحط منهن، عندما أبرزهن ضعيفات أمام مغامراته، فلقد واجهت سكينة الفرزدق حين استعرض فحولته وذكوريته في أبياته التي يصف فيها ضيافة ليلية من صاحبتين له من ذوات القصور في مغامرة له وصفها في قوله:

هما دلتاني من ثَمَانِينَ قامة ... كَمَا انقض باز أقتم الريش كاسره
فَلَمَّا اسْتَوَت رجلاي بالأَرْض قالتا ... أَحْيٌّ يُرْجَى أم قَتِيلٌ نحاذره
فَقلت ارْفَعا الْأَسْبَاب لَا يشعروا بنا بِنَا ... وَوليت في أعجاز ليل أبادره
أحاذر بوابين قد وكّلا بنا ... وأحمر من ساج تئط مسامره
فأصبحت في الْقَوْم القعود وأصبحت ... مغلقة دوني عَلَيْهَا دسا كره
يرى أنها أضحت حصانًا وقد جرى ... لنا برقاها ما الذي أنا شاكره

فغضبت سكينة من تصويره هذا، وقالت ناقدة له في أسلوب إنكاري وتوبيخي، تنتصر فيه لمضيفتيه في قصرهما، لما فشي من أسرارهما وفضح من شأنه معهما: ما دعاك إلى إفشاء سرك

وسرهما؟ أفلا سترت على نفسك وعليهما؟[40]، ومنحته أعطية متأثرة في قلتها وتواضعها بموقفها من ذكوريته وعدم اهتمامه بمعشوقتيه؛ ما دعاه إلى أن يزهد فيها ولا يأخذها.

إن نزعة سكينة الجندرية لبنات جنسها ولجنس الأنثى هي ما فاض بهذا النقد الإنكاري التوبيخي من جانبها لذكورية الفرزدق واستعراضه لفحولته على حساب وصفه للذوات الأنثوية بما قد يحط من الإناث اللاتي شاركنه ليلته تلك.

لقد كانت سكينة تحمل للفرزدق عدم رضاها بهذا الفحش في غزله الواصف للأنثى؛ اعتزازا بذاتها الأنثوية وتعصبا للنوع والجنس الذي تنتمي إليه؛ لذلك كان موقفها أقوى وأشد في الإزراء به، ومواجهته بما يشي بمحاولاتها قمع ذكوريته تلك وفحولته الطاووسية التي يحاول إظهارها في شعره، فكان موقفها منه عندما وقف على بابها ليسمعها شعره أن فضلت عليه شعر جرير؛ لتلطفه مع الأنثى في أغلب شعره، وأمرت جواريها بإخراجه ثلاث مرات في ثلاثة أيام كان يقف فيها على بابها.

فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في أغانيه فقال: خرج الفرزدق حاجًا فمرّ بالمدينة فأتى سكينة بنت الحسين -صلوات الله عليه وآله- فقالت يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال أنا قالت كذبت، فقال: لو أذنت لي لأسمعتك, فقالت لجواريها أقيموه، فأخرج ثم عاد إليها في اليوم الثاني, فقالت له يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال أنا قالت كذبت, قال: أ فأسمعك؟ قالت: اخرج, ثم عاد إليها اليوم الثالث, فقالت: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت, ثم قالت: قم فاخرج، فقال لها: يا بنت رسول الله إن لي عليك حقا إذا كنت إنما جئت مسلّمًا عليك فكان من تكذيبك إياي، وصنيعك بي حين أردت أن أسمعك شيئا من شعري ما ضاق به صدري[41].

إن الناقدة سكينة في موقفها النقدي هذا للفرزدق الرافضة لمحاولات إثباته شعريته، والمكذبة له، والزاجرة له من زيارتها، لتعبر عن انتصارها للأنثى التي اشتهر الفرزدق بفحشه بها في شعره، إنه موقف نقدي متأثر بانحيازها للنوع الأنثوي الرافض لذكورية الفرزدق، التي يحاول استعراضها في شعره عندما يفحش بالأنثى فيه، حتى أنها لترفض السماع منه؛ لأنها لا تود أن تسمع في حضرته ما يقوله من فحش بالأنثى؛ فينتقص بذلك من ذاتها الأنثوية، ويرفع من ذكوريته في حضرتها.

إننا نلاحظ أن هذا النوع من النقد الذي يمكننا تلمسه في نقد المرأة العربية لشعر الرجل بخاصة -كما هو حال سكينة مع الفرزدق- نقد منحاز للأنثى "ويقاوم هيمنة الرجل ودونية المرأة في مناحي الحياة، كما يقاوم الثقافة التي تجعل الذكر هو المركز والذات، والمرأة هي الهامش والآخر، ويمنح الرجل الهيمنة والرفعة والأهمية"[42].

لقد وصف زكي مبارك الناقدة سكينة بنت الحسين في نقدها للشعراء بما يصورها ناقدة نسوية، حين أشار إلى نزعتها المنتصرة للنوع الأنثوي ووسمها بسمة الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع[43]، عندما أنكرت على كل من الفرزدق وجرير موقفيهما من الأنثى عندما فحش الأول بها، وردها الثاني وقد جاءت زائرة له، وعبرت عن إعجابها بأوصاف كل من: جميل، وكثير، ونصيب؛ لأنهم مدحوا الأنثى، وعبروا عن إعجابهم بها، فجعلوا حديثها بشاشة، وقتلاها شهداء، وكان موقفهم من الأنثى موقف احترام، وتقدير، وعناية في صغرهن وفي كبرهن[44]. وإذا كان زكي مبارك قد امتدح سلامة ذوق سكينة النقدي في اختياراتها وموازناتها بين الشعراء، فإنه قد عبر عن نسويتها وعرَّض بانحيازها للنوع والجنس الأنثوي، عندما وصف نقدها بالغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع[45]، "وأنها كانت حريصة على نعيم المرأة بوجه خاص"[46]، كما وصف مبارك نقد سكينة بالعنيف القاسي على الشعراء من الذكور الواصفين للأنثى، وكانت كما يقول مبارك تجابه من تشاء من الشعراء بلاذع النقد والتجريح، وكانت "تهتم بنوع خاص بالمعاني الوجدانية، التي تقال في وصف المرأة، وفي الخضوع لما لها من السيطرة والجبروت"[47].

إن هذا يجعلنا نصف نقد السيدة سكينة للشعراء بأنه كان نقدا متشددا بانحيازها للنوع الأنثوي، أو قل إنه كان نقدا نسويا يحاول قمع الذكورية الشعرية الواصفة للأنثى بما لا تشتهيه من الصفات الواضعة من مكانتها في المجتمع والإبداع، وأنها كانت منتصرة للأنثى من محاولة الشاعر الذكر إبراز فوقانيته وتسلطه على الأنثى، وأنها كانت في نقدها تخلع من ذاتها النابهة الممتلئة بالزهو والإعجاب[48] على نقدها المنحاز والمنتصر للأنثى في مواجهة الذكر، ولم يتردد زكي مبارك في وصفها في

نقدها بأنها كانت "تتلمس للشعراء في وصفهم للأنثى الهفوات، وتعد السيئات، وتخاطب رواتهم بلهجة خشنة جافية، لا رفق فيها ولا إيناس"[49].

ولقد تبدى هذا الخطاب النقدي النسوي المنتصر للأنثى والأنوثة ضد الذكر والذكورة في نقد سكينة، في عنفها النقدي مع الفرزدق حين رفضت السماع منه؛ لما تحمله في ذاكرتها له من فحش في شعره بالمرأة، وإخراجها له من مجلسها الشعري، ورضاها عن شعر نصيب لما يبديه في شعره من ميل للإناث، وفخر بهن، ومدح لهن، ودفاع عنهن[50].

ولقد أعجبت سكينة بشعر جميل في النساء، واستخدمت في نقدها المادح لشعره ولشخصه ضمير المتكلم العائد على الأنا والذات، وكأنها هي المقصودة بشعره الواصف للإناث، عندما وصف محبوباته بقوله:

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيدُ
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريدُ
وأفضل أيامي وأفضل مشهدي إذا هيج بي يوما وهن قعودُ

فقالت له: أغزلت وكرمت وعففت، وأدخلته مجلسها وقالت له: أنت الذي جعلت قتيلنا شهيدا، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تنوب فيه عنا وتدافع، وكافأته وحكت له بأنه أشعر من كان على بابها[51]؛ لأن جميلا في شعره هذا لم يسء للأنثى كما أساء لها الفرزدق، كما تجلت نسوية سكينة النقدية في خطابها النقدي الذي صاغته بضمير المتكلم (نا) فأشركت ذاتها مع سائر الإناث، وجعلت نفسها واحدة من الموصوفات بشعر جميل، وأسقطت من ذاتها المنحازة للنوع والجنس على خطابها النقدي فخاطبت جميلا بقولها: أنت الذي جعلت (قتيلنا) شهيدا و(حديثنا) بشاشة وأفضل أيامك يوم تنوب فيه (عنا) وتدافع، وكافأته وحكمت له بأنه أشعر من كان ببابها.

لقد كافأته سكينة بمقولتها النقدية هذه لأنه لم يسء للأنثى في شعره كما كان يسيء لها الفرزدق، ووضعت نفسها باستخدام ضمير المتكلم (نا) مكان الأنثى في خطابها النقدي لجميل، وكانت

سكينة لشدة تعصبها للأنثى من بنات جنسها ضد الذكر، أو قل لشدة نسويتها تفضل أن يجعل المحب محبوبته تعيش في نعيم وسعادة، وأن يرضى هو لنفسه بالشقاء؛ ولذلك رضيت بما رضي الشاعر جميل به لنفسه من أسباب الشقاء: العمى، والصمم، مع سلامة محبوبته بثينة، حين مدحت سكينة قول جميل في بثينة:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى علي كلامها

فدعت له بالرحمة، ووصفته بالصادق في شعره، وبالجميل كاسمه، وحكمت له بجودة شعره[52]، وهي نفسها التي أنكرت -كما يقول زكي مبارك- على الفرزدق أنه أفزع وروّع صاحبتيه[53]، وهذا جعل زكي مبارك يقول: إن نقد سكينة متأثر بالعطف على المرأة، والحرص على نعيمها بوجه خاص، بلا نظر لقيمة الشعر من الوجهة الفنية، وأن أحكامها النقدية كانت تتسم بسمة الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع[54].

إن هذه التوصيفات لنقد سكينة من زكي مبارك هي النسوية عينها، بمعنى أن نقدها كان نقدًا نسويًا، وهل النسوية شيء غير التعصب للأنثى في مواجهة الذكر، والغيرة على الجنس والدفاع عن النوع؟! وإذا كانت نسوية سكينة في نقدها قد دفعتها للإنكار على جرير ردّه طارقته ليلًا زائرة له، ورأت في موقفه هذا إهانة للمرأة وإذلالًا لها بسبب عشق أنوثتها لذكوريته، وجفاء أخلاقه تجاه الأنثى العاشقة المحبة له؛ فإن نسويتها كذلك هي التي جعلتها تمدح شعر جرير نفسه الذي يعبر فيه عن لطفه مع أنثاه في موقف آخر، واحترامه لها، وحبه لها، وتقديره، وولهه عليها إن لم تزره وتلم به، في قوله:

بنفسي مَن تجنُّبُه عزيزٌ عليَّ وَمَنْ زِيارتُه لِمامُ
وَمن أُمسِي وَأُصبِح لا أراه وَيطرُقني إذا هجع النيامُ

وحكمت له في شعره هذا الواصف لأنثاه بالشعرية، وفضلته على منافسه في الشعر الفرزدق، كما صنعت له كذلك في رثاه لزوجته وفي وصفه لجمال عيون الأنثى وحورها[55]، وذلك لأنه اهتم فيه بالأنثى، وحرص على الرفع من شأنها وذاتها.

إن الحس النقدي النسوي المنحاز للنوع هو ما دفع الناقدة سكينة لاتخاذ ذينك الموقفين المتناقضين من جرير، فأنكرت عليه رده طارقته الأنثى الزائرة له ليلًا والراغبة في السمر معه ولم يرحب بها بل ردها ولم يدخلها، لأنها رأت في هذا حطًا من شأنها، والنسوية هي من جعلتها تمتدح جريرا وشعره الواصف لمشاعره تجاه زوجته التي فقدها ولجمال عيون الإناث؛ لأن في هذه المشاعر رفعا من شأن الأنثى، واحتراما لها وحبا وتقديرا لذاتها الجندرية.

ولا أجد أشد وضوحا وجلاء لتعصب سكينة -رحمها الله- لبنات جنسها وحدبها (بمعنى إشفاقها) على الأنثى والأنوثة التي صبغت نقدها بالحس النسوي من إنكارها على ذلك الشاعر الذي ساوى في شعره بين متعة الماء والنوم وبين متع الأنثى وملذاتها في قوله:

لــولا ثــلاث هــنّ عــيش الــدهر المـــــاء والنـــــوم وأم عمـــــرو

لأن سكينة ترى أن متعة المرأة بالنسبة إلى الرجل ولذتها لا تساويها متعة ولا لذة في الحياة، وأنفت –في نقدها لذلك الشاعر- من أن يساوي في شعره بين لذائذ الأنثى وما سواها من لذائذ الحياة ومتعها، فقبحته وقبحت شعره[56]، وحطت منه لأن ذكوريته -كما ترى- حطت من قيمة الأنثى في الحياة إذ ساوت بينها وبين بعض مطالب الإنسان في الحياة، أو لأنه جعلها في شعره لا تتجاوز متعة من متع الحياة كالماء والنوم يستهلكه الذكر كما يستهلك أشياء الحياة، ويسخرها في متعه وملذاته ورغباته، فهو لم يزد على أن ساواها بأشياء الإنسان الذكر في الحياة، وهي في تقدير الناقدة لا يمكن أن تصطف مع سواها من شؤون الحياة المادية.

ألا ترى في هذا النقد شيئًا من الحساسية النسوية المنحازة والمتعصبة للأنثى من الناقدة أثرت على حكمها النقدي وجعلتها تقبح شعر الشاعر؟

لقد حاولت بنت الشاطئ تخريج هذا الخطاب النقدي الذي قبّحت فيه سكينة شعر الشاعر بسبب موقفه من المرأة (أم عمرو) والتخفيف من نسوية سكينة المنحازة للأنثى؛ فعللت تقبيح سكينة النقدي هذا لشعر الشاعر بقولها: "لأن الشاعر خلط بين حاجات الجسم المادية (الماء

والنوم) وحاجات القلب الوجدانية (أم عمرو وحبه لها) وأنه تستوي عنده أم عمرو والماء والنوم بل تتأخر عنهما"[57]، لكن بنت الشاطئ ما لبثت أن لمحت لنسوية الناقدة سكينة في مدحها لشاعرية كثير في قوله يصف عزة، ويعبر عن إعجابه بها وبأخلاقها في الحب[58]:

وَأعجَبَني يا عَزّ مِنك خلائقٌ كِرَامٌ إذا عُدّ الخلائِقُ أرْبَعُ
دُنُوُّكِ حتى يذكرَ الجاهلُ الصّبا ودفعك أسبابَ المنى حينَ يَطمعُ
ومنهن إكرام الكريم وهفوة اللـ ئيم وخلات المكارم تنفع

فقالت بنت الشاطئ إن سكينة في نقدها لمحت في وصفه لعزة دقة تعبيره عن عزة الأنثى وطبيعة حواء[59]، وبنت الشاطئ تشير إلى أوصاف الأنثى التي جاء بها كثير لعزة، وامتدحها بها، وأعجبت سكينة، لما فيها من الخلائق التي تظهرها الأنثى لتسيطر بها على الذكر، وتلعب بأحاسيسه ومشاعره، حتى يبقى لها أسيرا وبها مغرما وبحبها متلذذا وللذاتها خاضعا ومنقادا.

لقد ضاقت سكينة ذرعًا من ذكورية عمر بن أبي ربيعة حين عبر عن تشوقه لمعشوقة له اسمها زينب وقت رحيلها عنه ولم يرحل معها، في قوله:

أَلْمِمْ بزينبَ إنّ البَيْنَ قد أَفِدَا قَلَّ الثَّواءُ لَئِن كان الرَّحيلُ غَدَا

وقالت ناقدة له في عدم رحيله: فيا ويحه! فما كان عليه أن لا يرحل في غده[60]، متعجبة من عدم انقياده لحب محبوبته الراحلة، واتباعها في ارتحالها، ولائمة له أن تأخر عن الرحيل بعدها، وكأنها ترى في عدم الخضوع لحب أنثاه موقفا ذكوريا يأنف الانقياد للأنثى والخضوع لها، وكان هذا ضد ما تشتهيه الناقدة سكينة في علاقة الذكر بالأنثى والمتمثل في أن تكون هي المتبوعة وهو التابع فلماذا لم يتبعها؟ وكان هذا مصدر تعجبها في مقولتها النقدية: فيا ويحه! فما كان عليه ألا يرحل في غده.

وأنفت سكينة في حسّ نسوي من أن يصف الشاعر الحارث بن خالد المخزومي أو العرجي، عائشة بنت طلحة ونسوة معها يطفن بالبيت، وما بلغ بهن من جهد أثناء طوافهن، ورأت في ذلك

الوصف استضعافا للأنثى، وإشارات إلى ضعفها، وعدم قدرتها على التحمل للمشاق كما هو حال الرجل، وكان قد قال:

يقعدن في التطواف آونة ويطفن أحيانًا على فتر
ففرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الخمر

فقالت سكينة متسائلة: أحَسَنٌ عندكم ما قاله؟ كالمنكرة لمن يظن في هذا مدحا للمرأة، ولما قالوا لها: نعم، أنكرت عليهم ذلك بقولها: وما حسنه؟! فو الله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشاؤهن[61].

إن الناقدة سكينة رأت من منظورها النقدي النسوي المنحاز للأنثى، والمنتصر لها، والمعتز بالذات الأنثوية أمام الذكر، أن هذا ليس وصفًا حسنًا للأنثى؛ لأن فيه استضعافا لها في قدراتها وطاقاتها أمام قدرات وطاقات الذكر، فوضحت أن الطواف حول الكعبة مجهد ليس للمرأة فقط بل هو كذلك مجهد لكل من يقوم به حتى ولو كان لديه من القوة مثل قوة الإبل.

لقد رأت سكينة من خلال إحساسها بالذات الأنثوية أن هذا الوصف من الشاعر يحطّ من قيمة الأنثى مقابل الذكر، والمرأة مقابل الرجل، باستضعافه لبنيتها الجسدية، وقدرتها على النهوض بالأعباء الحياتية.

إن هذ الموقف النقدي لسكينة بنت الحسين من وصف الشاعر للإناث الطائفات ليدل على أن المرأة العربية الناقدة –كما تقول فوزية أبو خالد- قد حاولت في خطابها النقدي أن تعدل به ذلك الخطاب السائد كخطاب يبرز اختلال ميزان العدل في العلاقات الاجتماعية بمبرر الاختلاف البيولوجي بين المرأة و الرجل[62].

ووصفت الناقدة عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب الشاعر كثير عزة بأنه "ألأم العرب" لأنه لم يحسن وصف حبه لمحبوبته الأنثى، عندما قال فيها:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

فقالت له في استعلاء وأنفة نقدية؛ توبيخا له على هذا القول: "ولم تريد أن تنسى ذكرها؟ أما تطلبها إلا إذا مثلت لك"[63]، إنها في هذه اللهجة النقدية الغاضبة من ذكورية الشاعر كثير المستعلية على الأنثى، لتتعجب من عدم اهتمامه بأنثاه العاشقة له، بل هي أشد عجبا من رغبته في نسيانها وإهمالها.

إن هذا الخطاب النقدي من عقيلة يوحي باعتزازها –وهي إحدى سيدات قريش- ببنات جنسها، وبحرصها على مكانتهن أمام الرجل / الذكر، وأنها تود أن يكون الرجل الذكر هو المتذلل الضعيف في حبه أمام الأنثى، وأن تكون الأنثى هي المهيمنة المستولية على عقل الرجل وقلبه وإرادته، لذلك رفضت الناقدة عقيلة قول كثير هذا الذي يضخم فيها ذاته في مقابل أنثاه، ويصور فيه استعلاءه على الأنثى بتصويرها تمعن في مطاردته وهو يمعن في نسيانها فجاء نقد عقيلة له من منظور الاهتمام بالنوع/الجنس الأنثوي، والانحياز له، والانتصار لشخصيته الحافظة لمكانة النوع / الأنثوي، وأثقلت مقولتها النقدية للشاعر بألفاظ نقدية توحي وتشير إلى نسويتها، والانحياز للمرأة في مواجهة الرجل.

أما صويحبات ليلى صاحبة المجنون فقد حكمن للمجنون بأن أنثاه لم تنصفه في حبه عندما سمعن شعره الذي يشكو فيه مطلها له وشكواه من عبثها به وبحبه، ومع هذا فقد كن راضيات -رضا يشبع أنوثتهن- بصورتها الظالمة له في شعره، حيث يقول:[64]

يـا للرِّجـالِ لِهَـمٍّ بـاتَ يَعـــــرُوني ... مُســتَطْرَفٍ وقَــدِيمٍ كـاد يُبْلِينـي
مَنْ عـاذِري من غـريم غيرِ ذي عُسُرٍ ... يــأبى فيمطُلُنـي دَينِـي ويَلْــوِينِي
لا يُبعِدُ النقدَ مِنْ حـــقّي فينكرَه ... ولا يُحــدِّثُني أنْ ســوفَ يَقْضِــيني
أطعتُـه وعصـيتُ النـاس كـــلَّهُمُ ... في أمــرِه وهــواه وهــو يَعْصِـيني

وجعلن يتضاحكن من حاله مع ليلى وهو يبكي، وهذا موقف نقدي لهن تجاه شعر المجنون، ووصفه حاله مع ليلى فيه ما فيه من الحس النسوي المتعالي من الذات الأنثوية تجاه الآخر الذكر

الذي هو المجنون، وينم عن رضاهن، فهن في حال من الضحك والفرح والسعادة بقوة الأنثى/ ليلى في علاقتها بالذكر/ المجنون، وضعفه أمامها، وكأن صاحبات ليلى يشعرن بانتصار الأنثى على الذكر، والمرأة على الرجل، وإمساكها بزمام أمرها وأمره، ولقد كن راضيات عن هذه الحالة التي وصل إليها المجنون مع أنثاه، وهن بذلك يباركن استعلاء الأنثى على الذكر وسيطرتها عليه، وأن يكون الرجل ألعوبة في يدي المرأة وإرادتها.

إن الحس النسوي هنا يظهر في شعورهن بسلطة الأنثى على الذكر وضعف الذكر وتذلله في شعره بين يدي الأنثى، وهذا لامس أحاسيسهن ومشاعرهن النسوية، ما جعلهن كالراضيات بصورة ليلى المستعلية وصورة المجنون الخاضعة المتذللة في شعره، وعبرن عن ذلك الموقف النقدي النسوي بتضاحكهن عندما سمعن شعره في ليلاه، وهو يبكي في تذلل وخضوع.

وتعجبت امرأة من قريش من شاعرية كثير عزة عندما عبر في شعر له عن التقليل من أثر ارتحال محبوبته وسفرها عنه على نفسه، وتعجبه من شعوره وإنكاره حزنه عند رحيلها في قوله يصف ذلك:

أ إن زم أجمـــال، وفـــارق جيـــرة وصـاح غـراب البـين أنـت حـزين؟

وقالت ناقدة لكثير في حسّ نقدي نسوي يشي بالإنكار عليه والرفض لموقفه المتعالي في علاقته بأنثاه وعدم مبالاته: إذا لم يكن الحزن عند فراق الجيرة وحنين الإبل فأين يكون؟![65]، إن الناقدة هنا تعبر في نقدها عن رغبتها في أن تكون الأنثى من خلال علاقتها بالذكر تمثل قوة مهيمنة على أحاسيسه ومشاعره تجاهها، وتنكر على الشاعر عدم اهتمامه بها وبرحيلها عنه، في شكل من أشكال السلطة الذكورية تجاه الأنثى.

إن مقولة المرأة القرشية النقدية التي طرحتها على شكل استفهام إنكاري وتعجبي لتنكر على الشاعر عدم اهتمامه برحيل المحبوبة لعدم شعوره بسلطتها العاطفية عليه، وتتعجب من ذكورية

الشاعر وتعاليه على علاقته بأنثاه، وترى أن الشاعر لم ينصف أنثاه ومحبوبته عندما قلل من أثر الرحيل وما تعقبه من بُعد وفراق على نفسه، فجاء نقد الناقدة القرشية له موحيا بعدم رضاها عن شاعريته المصادرة لحق الأنثى/ المحبوبة، في أسلوب وخطاب يوحي بروح نسوية صادرة عن الناقدة؛ لما فيه من انحياز وتعصب للأنثى واهتمام بها، وإنكار وتعجب لتعالي الرجل عليها وعلى علاقتها به.

وانتقدت امرأة من أهل المدينة كثير عزة في شاعريته التي أساء فيها تصويره لمحبوبته تصويرا يوحي بعدم جمالها، حين وصف طيب محبوبته في قوله:

وما روضة بالحزن طيّبة الثّرى يمجّ النّدى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزّة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

فأثار غضبها على بنات جنسها من وصفه هذا الذي رأت فيه حطًّا من جمال الأنثى حتى قالت ناقدة له: فض الله فاك، أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بخّرت بمندل رطب أما كانت تطيب؟[66]. إن نقدها يدل على شعورها بأن كثيرا في شعره قد أساء لعزة الأنثى التي يرى أنها لا تكون طيبة الرائحة إلا إذا تطيبت وتبخرت، وفي هذا انتقاص لجمالها الطبيعي، وإساءة إليها باعتبارها أنثى ينبغي أن تكون ذات جمال طبيعي يشي به جسدها دون مؤثرات خارجية.

إن الناقدة هنا شعرت بأن الشاعر قد أساء للأنوثة الدائمة الإشعاع بالجمال وعبقه عندما وصفها بأنها تطيب رائحتها بعدما تستعين بمؤثرات خارجية تذهب ما قد يكون فيها من رائحة غير طبيعية، ورأت الناقدة أن كثيرًا قد أساء لمحبوبته بوصفها أنثى تعبق دائما بالجمال والرائحة الزكية.

إن التعصب الدائم من الناقدة لجمال الأنثى، وأن الأنوثة معادل للجمال الطبيعي يوحي بالانحياز للنوع وتفضيله المطلق، وحمل شيء من الحساسية النسوية على كل ما يقوله الرجل عن الأنثى أو يصفها به، وكأنها تقول للشعراء من الرجال انتبهوا أن تصفوا النساء بما يمكن أن يظن من ورائه أنه يحط منها باعتبارها أنثى تشع دائما بالحسن والجمال.

الانتصار للذات والنزعة النقدية النسوية:

لقد انتصرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لذاتها ولأنوثتها التي انتهكها حسان رضي الله عنه مع من انتهكها من أصحاب الإفك عندما رموها بما ترمى به الأنثى عندما يراد الإساءة إليها، والانتقاص من ذاتها ومكانتها في المجتمع، وذلك عندما انتقدته في مقولة نقدية تعرّض فيها بالانتصار لذاتها وأنوثتها عندما مدحها في شعر له بقوله يصفها رضي الله عنها(67):

رزان حصـــان مـــا تـــزن بريبـــة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة ناقدة قوله هذا: لكن أنت لست كذلك.

إن الدافع لمقولة عائشة النقدية هذه هو تذكير الشاعر بما وقع منه عندما خاض في عفة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وأنوثتها مع من خاضوا من أصحاب الإفك، فهو موقف نقدي يعلي من قيمة الأنثى عامة وينتصر للذات الأنثوية التي حاول أصحاب الإفك الانتقاص منها خاصة، ومما يؤكد أن وراء هذه المقولة النقدية انتصارا للأنثى وانحيازا لها، من حيث هي أنثى غالبا ما ترمى بالذكر، أن هذه القصة وهذا الوصف في إحدى روايات الأصبهاني كان من حسان في رثاء ابنته، ومن ثم فنقد عائشة لشعرية حسان هنا هو انتصار للأنثى وانحياز لها من حيث هي أنثى دائما ما تُرمى في سهولة ولا مبالاة بما ينتقص منها ويحط من مكانتها.

وأظهرت إحدى ظريفات مكة وكانت مقيمة في المدينة انحيازها لجنس الأنثى عندما عبرت عن حزنها الشديد على وفاة شاعر الأنثى عمر بن أبي ربيعة، وكانت ترى في شعره الذي قصره على الأنثى والتغزل بها إعلاءً وإبرازًا للإناث ورفعًا من مكانتهن في الحياة والمجتمع، وكان حزنها خشية أن تفقد الأنثى هذه المكانة العالية في شعر عمر بن أبي ربيعة بسبب موته؛ لأنه كان في شعره قد رفع الأنثى من هامش الحياة إلى متنها بما منحها من أوصاف وتعلقه بها، فلما قالوا لها إن شاعرًا غزلًا مثل عمر أبي ربيعة قد ظهر في مكة هو الشاعر العرجي، وأنشدوها غزله في الأنثى الرافع من قدرها ومكانتها، أظهرت رضاها، وزال عنها قلقها على مكانة المرأة في الشعر، وقالت الحمد لله الذي لم يضيع حرمه –

بحسب رواية الأصبهاني- وفي رواية أنهم أنشدوها قول الحارث بن خالد المخزومي وهو أحد من رفع مكانة المرأة بتغزله بها:

إنّي وما نَحَروُا غَدَاةَ مِنىً عند الجِمَاريؤدها المقل

فجعلت تمسح عينيها من الدموع وتقول: الحمد لله الذي لم يضيع حرمه[68].

إن هذا الموقف النقدي من هذه الحبشية المولدة، لمكانة المرأة لدى هؤلاء الشعراء الثلاثة في شعرهم وما كانوا يرفعون به في شعرهم من شأن الأنثى حيث ينشدون حبها، ورضاها عنهم، ويتذللون بين يديها، ويخضعون لسلطان حبها، وسيطرة جمالها؛ ليوحي بمقدار تعصب هذه الناقدة لبنات جنسها في مجتمعها وانحيازها لهن، وفيه رفع لقيمتها ومكانتها هي بوصفها أنثى سوداء، حيث كانت ترى في شعر هؤلاء وأمثالهم إبرازًا لمكانتها وقيمتها بين بنات جنسها، فهي مهتمة بالأنثى وبذاتها، باعتبارها أنثى سوداء ترى في رفع مكانة الأنثى في المجتمع رفعًا لمكانتها، فكان موقفها النقدي من شعر هؤلاء الشعراء الغزلين يعبر عن رؤيتها النقدية النسوية لشعرهم الذي كان يحقق لها نزعتها النسوية وتعصبها لجنس الأنثى.

ونقدت جارية سوداء الشاعر ذا الرمة في وصف محبوبته بما رأت أنه وصف للشاة، وأنِفت في مقولتها النقدية عن أن توصف الأنثى بصفات حيوان، ورأت في ذلك حطًا لقيمة الأنثى ومكانتها في المجتمع، وحطًا من إنسانيتها. فقد روى كل من أبي علي القالي في أماليه، وابن السراج القارئ في مصارعه، أن جارية سوداء رآها ذو الرمة بالكوفة وكان قد استقاها ماء فسقته، فقال لها مازحا: ما أحر ماءك، فقالت: لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك، وتركت حر مائي وبرده، فقال: وأي شعري له عيب؟ فقالت: ألست القائل:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقاء أ أنت أَم أُمّ سالم؟

وعابت عليه في قصيدته هذه أنه وصف محبوبته/ الأنثى بصفات الشاة فجعل لها: قرنين كقرني الشاة، وَطَبيْن، وساقين دقيقين، وظلفين مشقوقين، وذنبا[69]، ورأت أنه في هذا حط من

الأنثى الإنسانة، ويظهر أن من أسباب ظهور نسويتها في هذا الخطاب النقدي المثقل بالعناية بالأنثى والاهتمام بها والارتفاع بها عن أوصاف الشاعر، هو استشعارها لذكورية الشاعر ذي الرمة عندما عيرها بصفاتها الأنثوية، وقال لها: "ما أحر ماءك" منتقصًا من طبيعتها الأنثوية، وملمّحًا بأنوثتها، حيث استفز واستنفر نسويتها فعبرت عنها في مقولاتها النقدية لشعره، وحاولت بهذا الخطاب النقدي أن تكبح من ذكوريته عندما اتخذت من علاقته بالأنثى وغزله بها وسيلة لنقد شعره نقدا نسويا، توضح فيه انعكاس ذكوريته ليس على خطابه لها بقوله: "ما أحر ماءك" فقط، بل على شعره الواصف لمحبوبته الأنثى.

وأظهرت إحدى نساء بني عامر تعصبها وانحيازها في نقدها لذاتها ولأنوثتها رافعة من شأن كل أنثى من خلال الافتخار بذاتها والاعتزاز بأنوثتها[70]، فلقد كانت تظهر وتتفاخر بقول القحيف العقيلي فيها:

وخرقـــاء لَا تـــزداد إِلَّا ملاحـــة وَلَـو عُمّـرت تعميـر نـوح وجلـت

إن استحسانها لهذا الوصف من الشاعر يعد تعبيرا منها عن تعظيمها لذاتها ولأنوثتها، وهي تشير في نقدها هذا لخطاب نسوي واضح وجلي، ومما يؤكد هذا الخطاب النقدي النسوي لديها مقولتها النقدية المشهورة المثقلة بالحس النسوي إلى درجة القداسة لهذه النسوية، فقد وصفت قول الشاعر ذي الرمة فيها -وكانت تحل فلجة ويمرّ بها الحاج فتقعد لهم وتحدثهم وتهاديهم-:

تمـام الحـج أن تقـف المطايـا علـى خرقـاء واضـعة اللثـام

بقولها: "أنا منسك من مناسك الحج"[71]. إنها تمنح جمالها وأنوثتها التي وصفها ذو الرمة مكانة مناسك الحج عندما تجعل من ذاتها الأنثوية معادلًا موضوعيًا لقدسية مناسك الحج ومكانتها من حياة الخليقة، حتى باتت الأنوثة وجمالياتها شيئا مقدسا في الحياة.

وكان لخرقاء العامرية هذه ابنة ذات حس نسوي كذلك في نقدها للشعر، فقد تمثلت ابنة الخرقاء في حس يتعصب للأنثى وجمالها عندما عبرت عن هيمنة الأنثى بجمالها على الذكر في تمثلها لقول ذي الرمة[72] وكان قد رمقها أحد المارين بنظرة استحسان لجمالها ووقف يحادثها:

وإن لم يكن إلا معرس ساعة قليلًا فإني نافع لي قليلها

إن تمثلها بهذا البيت لذي الرمة في محبوبته يعبر عن حس نقدي ممتلئ بالنشوة والافتخار بجمالها الأنثوي، فقد رأت في محادثة ساعة مع الرجل الذي وقف يتأمل جمالها مأخوذا بها منّة منها عليه، وهي في نقدها هذا تصدر عن حس نسوي تنحاز فيه وتتعصب لذاتها الأنثوية تجاه الرجل وذكوريته، فقد حاكمت بيت ذي الرمة محاكمة نسوية حيث رأت فيه خضوعًا منه وتذللًا لأنثاه، وفي تفضل الأنثى عليه بمحادثته ساعة من الزمن استعلاء عليه، ولذلك فهي استشهدت به معبرة في موقفها النقدي هذا عن استحسانها واستجادتها له، ومن ثم دعمت به نسويتها وتمثلت به أمام من وقف يحادثها ويتأمل جمالها في رضا منها واستحسان لذلك الفضل الأنثوي على الرجل وذكوريته.

ونقدت النوار بنت عاصم المنقري مدح ذي الرمة لأمها ميّ حيث رأت في مدحه ذما لأمها ولكل أنثى من حيث لا يشعر، في قوله:

على وجه ميّ مسحة من ملاحة وتحت الثياب الشين لو كان باديا

ولذلك استشاطت النوار غضبًا على ذي الرمة وحكمت على شعره هذا بالقبح[73]، في نقد نسوي يحاول الاقتصاص للأنوثة من الذكورة التي ظهرت في شعر ذي الرمة تجاه أنثاه، عندما وصفها بأنها تظهر شيئا يسيرا من الملاحة، ولكنها تغطي بثيابها كثيرا من مظاهر الشين الساكن في عموم جسدها المغطى بالثياب، ولذلك عبرت النوار في نقدها له عن غيرتها من نيل الشاعر من أمها ومن كل أنثى بهذا الوصف.

اصطراع النوع (الجندر) والنقد النسوي:

ونقدت النوار زوجها الفرزدق نقدا نسويا يظهر اقتصاصها من ذكوريته التي يظهرها عليها، وحاولت ان تنتصر لأنوثتها التي حاول أن يهجوها بها في قوله لها:

تُخاصمني وقد أولجتُ فيها كرأس الضَّبَ يلتمس الجرادا

وكانت النوار منافرة له ومغاضبة لا تواده ولا تهواه[74]، و قد استعدت عليه جريرا ليهجوه ويقتص لها منه[75]. ولذلك عبرت عن نسويتها وانتصارها لأنوثتها ضد ذكوريته التي هجاها بها عندما

سألها بعد ذلك عن شعره وشعر خصمه جرير فقال لها: كيف شعري من شعر جرير؟ فردت عليه ناقدة له: قد شركك في حلوه، وغلبك على مره. وفي رواية أنه قال لها: أنا أشعر أم ابن المراغة؟ فقالت له: غلبك على حلوه (تقصد شعر الغزل)، وشركك في مره (تقصد شعر الهجاء)، وفي رواية أخرى: هو والله أشعر منك. غلبك على حلوه، وشركك في مره[76].

ولقد شكك بعض علماء النقد في عدالة حكمها النقدي هذا؛ لِما رأوا من انحياز فيه واقتصاص لأنوثتها التي سبق وهجاها الفرزدق بها، فقد روى المرزباني عن أبي عبيد الله أنه قال: "لا يقبل قول النوار على الفرزدق لمنافرتها إياه"[77].

وهذا يؤكد أن حكم النوار كان صادرا عن انتصار لذاتها الأنثوية، التي حاول الفرزدق الحط منها وانتقاصها أمام ذكوريته بالجنس الذي كان الفرزدق يرى فيه إذلالًا لها وانتقاصًا لأنوثتها، وكان قد تزوج عليها الحدراء وهجاها بما يوحي بذكوريته وهيمنته الجنسية المتعالية عليها. لقد أدركت النوار "الكيفية المتحيزة التي بها يتم تهميش المرأة ثقافيا لأسباب طبيعية بيولوجية[78]، أي بسبب نوعها الجنسي، ولذلك حاولت النوار الاقتصاص من ذكورية الفرزدق وهجائه الجنسي لها، فجاء حكمها النقدي -كما يرى ابن أبي عبيد- متأثر بانحيازها للجنس والنوع الأنثوي ومنافرتها لذكورية زوجها التي كان يبديها لها وهجاها بها، لذلك فضلت شاعرية جرير على شاعرية زوجها الفرزدق.

وتظهر نسوية ميّ صاحبة ذي الرمة في مواقفها النقدية مما قاله ذو الرمة فيها، فلقد استحسنت وصفه لها ولجمالها ولأنوثتها، وتاهت بذلك الجمال وأعلنته أمام صاحباتها اللاتي حاولن تقريرها عن قول ذي الرمة فيها:

إذا راجعتك القول ميّة أو بدا ... لك الوجه منها أو نضا الثوب سالبه
فيالك من خدّ أسيل ومنطق ... رخيم ومن خلق تعلّل جاذبه

فقالت لصاحبتها كالمستحسنة لهذا الوصف لأنوثتها ومقدار سيطرتها على الشاعر بتلك الأنوثة: قاتلكِ الله ما أعظم ما تجيئين به[79].

وصححت مي قول ذي الرمة فيها وفي حبه لها، وهنأته بهذا الحب، وكان قد اشتكى ذو الرمة من حبها بقوله:

إذا سَرحَتْ من حبّ ميّ سوارحٌ على القلب آبته جميعًا عوازِبُه

فقالت لصويحباتها "ما أصحه –تقصد قوله السابق فيها - وهنيئا له"[80] كالمتفضلة عليه بأنوثتها وجمال تلك الأنوثة، وفي هذا الموقف النقدي ما فيه من النسوية وحب الذات والدل بها مما يوضح استعلاء ميّ على ذكورية ذي الرمة وتبعيته لسلطة الأنوثة فيها، وإحساسها بسيطرتها عليه وهيمنتها على ذكوريته.

ونقدت أم ولد لبشر بن مروان كثير عزة في قوله:

أقول لماء العين أمعن لعله بما لا يرى من غائب الوجد يشهد
فلم أرمثل العين ضنت بمائها عَلَيّ ولا مثلي عَلَى الدمع يحسد
ولم أدرأن العين قبل فراقها غداة الشبا من لاعج الوجد

فقالت: "قاتله الله، فهل قال قول كثير أحد على الأرض؟ والله لا أكون رأيت كثيرا أو سمعت منه شعرا أحب إليّ من مئة ألف درهم.[81].

لقد اتسم نقد الناقدة هذا بشيء من العنف والضيق والتبرم بذكورية الشاعر كثير، ورأت في شعره شكلًا من أشكال النرجسية الذاتية، ومن ثم لم تستسغ في نقدها له -كما هو واضح- عفته وعذريته القائمة على مدح لذاته التي يصفها بالحياء، كذلك رأته في شعره منشغلًا بذاته عن المرأة التي يتغزل فيها، فنقدته بأنه ينشغل عن المرأة بمدح نفسه وذاته، وعندما قال كثير واصفًا روع المرأة وخوفها منه عندما يحسر رأسه عند لقائها هيبة منه:

إذا حسرت عنه العمامة راعها جميل الخفوق أغفلته الدواهن

فنقدته أم ولد بشر بن مروان بقولها: "والله ما رأيت عربيا قط أقبح ولا ألأم منك"[82]، لقد حكمت على شعره بالقبح واللؤم الذي هو الجنون، رافضة أن تكون ممن يخشينه أو يخفن منه أو

يروعهن، إذا ما نظرت إليه حاسرا، وفي هذا النقد اعتداد بالذات الأنثوية من الناقدة ضد ذكورية الشاعر كُثير، ومحاولة منها لمواجهة ذكورية الشاعر واعتداده بنفسه بأنوثتها التي تركن إليها وتعتز بها.

ولقد بلغت نسوية الناقدة ذروتها حين نقدت كثيرا الواصف لهيبته، وخوف معشوقاته منه، وخشيتهن له عند لقائه أو حضور مجلس له، بقولها: "لعن الله الذي يفرق منك"[83]، وكان قد قال يصف ذلك:

وكنت إذا ما جئت أجللن مجلسي وأبدين منّي هيبة لا تجهّما
كواظم لا ينطقن إلّا محورة رجيعة قول بعد أن يتفهما
تراهنّ إلّا أن يؤدّين نظرة بمؤخرعين أو يقلّبن معصما
يحاذرن منّي غيرة قد عرفنها قديما فما يضحكن إلّا تبسّما

إن هذا النقد الذي نقدت به أم ولد بشر بن مروان كثيرًا نقدٌ -كما هو واضح- مثقل بالنسوية النازعة إلى مواجهة ذكوريته بالأنثوية والانحياز للنوع والجنس الأنثوي، وهو نقد رفضت فيه الناقدة شعرية كثير الواصفة للأنثى بصفة الخوف والخشية والهيبة من الذكر والخضوع له في حضرته.

وقد عبّرت الناقدة عن موقفها المنتصر للأنثى بنقدها شعره نقدًا قام على تقبيح ذلك الشعر ورمي صاحبه كثيّر بالجنون، ورفضها الخوف منه، أو احترامه احترام خوف، أو فرق، أو خشية.

لقد رأت الناقدة أم ولد بشر في هذه الأوصاف والعلامات التي أطلقها كثير على إناثه عندما يكن في مجلسه وفي حضرته صفات وعلامات تنتقص من مكانة المرأة وقيمتها مقابل مكانة الذكر وقيمته في الحياة، فعبرت في نقدها عن رفضها في حسّ نقدي نسوي ينحاز للأنثى، وينتصر للذات والنوع في مواجهة الذكر وذكوريته، وهذا يوضح لنا حضور الخطاب النسوي وتجليه في نقد المرأة العربية القديم للشعر العربي، الذي حاولت فيه المرأة أن تضع مقاييس حضور الأنثى، وأوصافها، التي ترتضيها لذاتها الأنثوية في علاقتها بالرجل وجنسه (الجندري) الذكوري.

ولقد اشتد الخطاب النقدي النسوي في بواكير النقد العربي القديم من جانب المرأة العربية الناقدة تجاه صورة المرأة في شعر كثير عزة، حتى اتهم كثير بأنه لم يكن مخلصًا في حبه وغزله في محبوبته عزة، وإنه كان مثالا واضحا على تلك العلاقة النسوية/ الذكورية بينه وبين نساء عصره.

فقد كان متهمًا في غزله من نساء عصره بنوع من التحيز لذكوريته ضد أنوثتهن والتعالي عليهن في حضرته، وأنه كان يمارس عليهن أشكال الهيمنة والاستبداد، وأنه كان يصوّر النساء في نوع من التحيز والتعالي حتى أنه نقل هيبة الملوك -كما يقول إحسان عباس- إلى مجالس غزله عندما جعل الفتيات يهبنه في مجلسه، وأنه قد كان مسرورا من تلك الصورة التي نقلها من عالم الحكم والتصرف المطلق إلى دنيا المرأة والحب(84).

وإذا كانت الناقدة أم ولد بشر بن مروان قد واجهت ذكورية كثير عزة بتلك النزعة النسوية التي ظهرت في نقدها له فإن محبوبته عزة نفسها قد ضاقت ذرعا بذكوريته عندما استقبحت شعره الذي يتغزل فيه بها؛ لما فيه من أوصاف للأنثى ترى أنها لا تليق بها، فلقد وصفها بما يحملها الشقاء والتعب والشدة في العيش، وفضلت عليه غزل الأحوص وأوصافه علاقته بالأنثى القائمة على إلانة جانبه للأنثى وتضرعه للنساء وخضوعه لهن، فاستقبحت عزة شعر كثير؛ لما فيه من عدم الاهتمام بشأن المرأة وراحتها، ومصادرته لأنوثتها عندما تمنّى لها أمنيات لا تليق بأنثى محبوبة ومعشوقة مثلها، فقد تمنّى لها أن تكون بكرة هجناء بها داء الجرب، وشاردة في الصحراء، مطرودة ممن يراها، مضروبة مرمية بالحجارة حتى يحظى بها في غفلة من صاحبها، فقال:

وَدِدْتُ وبَيْتِ اللهِ أنَّكِ بَكْرةٌ ... هَجانٌ وأنِّي مُصْعَبٌ ثم نَهْرُبُ
كِلاَنَا به عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ ... عَلى حُسْنِها جَرْباءُ تُعْدِي وأَجْرَبُ
نكون لذي مالٍ كثيرٍ مغفلٍ ... فلا هُوَ يَرْعَانا ولا نحن نُطْلَبُ
إذا ما وَرَدْنا مَنْهَلًا صاح أهلُه ... علينا فما نَنْفَكُّ نؤذى ونُضْرَبُ

فقالت له؛ رافضة وصفه هذا لها، ولعلاقته بها، ولهذه الصفات التي لا تليق بالمحبوبة العاشقة: "ويحك! أردت بي الشقاء, أفما وجدت أمنية أوطأ من هذه؟ وفي رواية: "أردت بي الشقاء الطويل, ومن المنية ما هو أوطأ من هذا الحال"، واستجادت شعر الأحوص الواصف فيه أنثاه؛ لمكانة المرأة فيه، وفضلته على كثير بقوله:

يأيها اللائمي فيها لأصرمها أكثرت لو كان يغني عنك إكثار
أكثر فلست مطاعًا إذ وشيت بها لا القلب سال ولا في حبّها عار

وقوله:

أدورولا أن أرى أم جعفرٍ بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوارًا ولكن ذا هوى إذا لم يزرلا بد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإني إلى معروفها لفقير

لأنه -كما تقول- "ألين جانبًا عند الغواني من كثير في شعره وأضرع خدًا للنساء[85].

فقد لاحظت عزة في شعر كثير مصادرةً لأنوثة المرأة، وحملا لها على الشقاء في سبيل سعادته هو، كما رأت حفظًا من الأحوص لأنوثة المرأة بإظهار الخضوع والتذلل لها، ومحاولة كسب رضاها تجاهه، والرفع من شأنها ومكانتها لديه، وفي هذا انحياز من عزة لجنسها وأنوثتها ورغبة منها في الرفع من شأن الأنثى ومن مكانتها في المجتمع في مقابل الذكر نفسه, ولقد عبرت عن حسها النسوي عندما رفضت مجالسة كثير لها في مجلسها قائلة له: "ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس"[86].

ويعد كثير في تقديري من أبرز الشعراء الذين كان لهم أثر كبير في بروز الخطاب النقدي النسوي عند رائدات النقد العربي القديم، فقد روى المرزباني في موشحه ما يوضح ذلك ويؤكده في قول تلك الناقدة العربية التي بلغ بها التعصب للذات الأنثوية أن خاطبت كثير عزة في خصومة نقدية لها معه بقولها: "الحمد لله الذي قصر بك فصرت لا تُعرف إلا بعزة"، فقال لها في خطاب ذكوري يرد على خطابها النسوي: "والله ما قصر الله بي، فقد سار بها شعري، وطار بها ذكري، وقرب بها مجلسي"[87].

إن هذه الخصومة النقدية القائمة على جدل نقدي بين نسوية المرأة العربية الناقدة للشاعر كثير وأثر عزة /الأنثى على شعريته وعلى ذاته التي باتت لا تعرف إلا بعزة، وبين ذكورية كثير المتعالية على عزة/ الأنثى، لتدل على حضور نزعة نقدية نسوية عند المرأة العربية الناقدة للشعر العربي في تللك المرحلة من بواكير النقد النسائي للشعر العربي القديم, وهي نسوية كما رأيناها، تحاول أن

تخضع مقولاتها النقدية للانتصار للذات الأنثوية أمام سلطة ذكورية الرجل المحب العاشق، ومحاولة سيطرته على معشوقاته وهيمنته عليهن، وقد كانت عزة تأنف من أن تُعرف "بعزة كثير" وتقول: أنا عزة بنت جميل[88]، يدل على ذلك حوارها النقدي مع عبد الملك بن مروان حول شعر كثير الواصف لها[89]، فقد قال لها: هل تروين قول كثير فيك:

وقد زعمتْ أنّي تغيَّرتُ بعدَها ومَنْ ذا الذي يا عزَّلا يَتَغَيّرُ
تغيَّر جسمي والخليقةُ كالتي عَهِدْتِ ولم يُخْبِرْ بسرِّك مُخْبِرُ؟

فقالت له – في موقف نقدي منحاز لذاتها/الأنثى– ولكني أروي:

كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضتْ من الصمِّ لو تمشِي بها العُصْمُ زَلّتِ
صَفُوحًا فما تلقاكَ إلاّ بخيلةً فمَنْ مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ

إن رد عزة بهذا الشعر الذي يصف فيه كثير اعتزازها بذاتها الأنثوية وصدودها عن ذكوريته بما يوضح معاملتها له بالمثل، بل بالتمنع والتعالي على ذكوريته؛ ليعبر عن موقف نقدي ذي نزعة نسوية منحازة للذات والجنس والنوع والأنوثة في مواجهة الذكورة.

ولا ينبغي أن نعجب من هذه النزعة النسوية للناقدة العربية القديمة، فقد جاءت هذه النزعة ردة فعل على ذكورية المجتمع العربي والرجل العربي، سواء في تعامله مع الأنثى في شؤون الحياة، أم في شعره الواصف لها.

فلقد أرادت هند بنت أسماء زوج الحجاج بن يوسف المعروف بتسلطه وذكوريته[90] أن تبرز سلطتها الأنثوية أمام ذكورية الحجاج فتوجهت إلى نقد شعر جرير الواصف للأنثى على مسمع الحجاج، وكان جرير قد وفد على الحجاج مادحا له، فاستأذنته أسماء في استنشادها جريرا والحجاج يسمعها دون أن يعلم به جرير، ثم تركت سائر شعره الذي شهر به وطلبت منه أن يسمعها ما شبب به في النساء لتشبع ذاتها الأنثوية، وتتيه بها على كل من الحجاج الذي عرف بتسلطه وذكوريته، والشاعر جرير نفسه الذي غالبا ما يلوذ بعفته حيال النساء، وتبرز سلطتها وسيطرتها عليهما، وكان جرير قد شرع يسمعها قصيدة له في مدح الحجاج، فقالت له هند: دع عنك هذا، فأين قولك في النساء:

طرقتكَ صائدةُ القُلوب وليسَ ذا وقت الزيارةِ فارجعي بسلامِ
تُجري السِّواكَ على أغرَّكأنَّهُ بردٌ تحدَّرَمنْ مُتون غَمام
لوْكنت صادقة بما حدثتنا لوصلتِ ذاكَ فكانَ غيرَلمام؟

ثم أنشدته قوله:

خليلي لا تستغزرا الدمع في هند أعيذكما بالله أن تجدا وجدي
ظمئت إلى شرب الشراب وحسنه كذي فرية ترجو هداها وما يجدي

حتى أتت على جملة مما قاله من غزل وتشبيب في النساء[91].

وما كانت تفعل ذلك إلا لتعلي من شأن النساء أمام الحجاج من خلال إسماعه تذللَ الشاعر جرير وخضوعه وتضرعه للنساء، على الرغم مما عرف عنه من عفة تجاههن، إلا أنه كان في شعره لطيفا، رقيقا لينا في غزله وتشبيبه بالنساء؛ لما لهن من سلطان على قلوب الرجال وعقولهم.

إنه موقف نقدي نسوي من هند منحاز للنوع والجنس الأنثوي أمام سلطوية زوجاها الحجاج وذكوريته التي عرف بها تجاه المرأة، التي تجلت في تحذيره الخليفة الوليد بن عبد الملك من الركون للنساء، أو أن يتيح لهن الفرصة في التدخل في شؤون الدولة، مما أغضب أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، فنالت منه في حضرة الوليد بكلام وصفه الحجاج للوليد بأنه كان شديدا عليه، ولم يسبق أن وُوجِه بمثله[92].

ولقد واجهت بثينة ذكورية عمر بن أبي ربيعة التي عرف بها في غزلة بمعشوقاته, وبأنهن كن يسعين وراءه ويتصدين له ليظفرن بنظرة منه، أو تشبيب منه بهن[93] عندما نقدته نقدا نسويًا يظهر اعتزازها بأنوثتها وأن الأنثى هي المطلوبة لا الطالبة، ولا تود هي بوصفها أنثى أن تكون طالبة للذكر ساعية وراءه كما يفعل في شعره بنسائه، فقالت له -وقد جاء إليها يحكّمها في شعره وشعر جميل وأيهما أشعر من صاحبه-: "لا والله يا عمر! ما أنا من نسائك اللاتي تزعم أن قد قتلهن الوجد بك"[94]، فحاجّها بشعر جميل فيها الذي يدل فيه بنفسه حين قال:

وهُمَا قالتا لَوَ انَّ جميلًا عَرَض اليومَ نَظْرةً فرآنا
نظرتْ نحوَ تِرْبِها ثم قالت قد أتانا وما علمنا مُنَانَا
بَيْنَما ذاك منهما رأتاني أُعْمِلُ النَّصَّ سَيْرةً زَفَيانَا

فقالت لعمر منكرة تشبيه جميل في شعره الدال به على أنثاه بشعر عمر الذي يعبر فيه عن تعرض النساء له ولغزله: "لو استمد جميل منك ما أفلح، وقد قيل اشدد البعير مع الفرس إن تعلم جرأته، وإلا تعلم خلقه"[95].

إن بثينة هنا تنكر على عمر بن أبي ربيعة ذكوريته في غزله، ولا ترضى بأن يتشبه به صاحبها جميل، ورفضت في نقد نسوي جلي أن تكون مثل النسوة الضعيفات المفتونات بعمر وغزله فيهن، وبلغت بها النسوية أن شبهتهما بالبعير والفرس، وفي هذا إشارة منها إلى أن ليس لديهما المشاعر والأحاسيس الآدمية الراقية في تعاملهما مع الأنثى/ الإنسانة, حين قالت: "اشدد البعير مع الفرس إن تعلم جرأته، وإلا تعلم خلقه".

إن هذا النقد لصورة الأنثى المعشوقة في شعر كل من عمر بن أبي ربعية وجميل يظهر نزعة نسوية من بثينة فيها تطلع من المرأة العربية الناقدة قديما لحفظ أنوثة المرأة والاعتداد بها، في مقابل الرجل/ الشاعر وذكوريته التي يبثها في شعره، ولا ينبغي لنا أن نتعجب من هذه النزعة النسوية للناقدة العربية القديمة، فقد جاءت ردة فعل منها على ذكورية الشاعر العربي القديم، التي تتجلى في بعض شعره، وتكشف عن نفسها تجاه الأنثى، فلقد وجدت المرأة العربية متنفسًا في خطابها النقدي للشعر فعبرت عنه من خلال مقولاتها النقدية لصورة المرأة لدى الشعراء في صيغ كانت تحاكم بها شعر الشعراء موحية بنزعتها لذاتها الأنثوية، وأقنعة لغوية مجسدة في مقولاتها النقدية تحاول أن تخفي وراءها حقيقتها عن الأنا الواعية بوضعها الاجتماعي (الجندري) عندئذ.

ولكن بعض الشعراء من الرجال الذين تناولتهم الناقدات أدركوا مثل تلك الرموز والإشارات المتوارية خلف المقولات النقدية من قبل المرأة التي تحاول بها استعادة حقوقها الجندرية وفرض سيطرتها الذاتية الواعية بكينونتها, فحاولوا كبح نسويتها بمواجهتها بالهجاء الصريح لها، مركزين على

أنوثتها ونوعها الجندري بخاصة، يتبدى لنا ذلك في حكومة أم جندب واتهام امرئ القيس لها بعشقها الجنسي لعلقمة الفحل[96]، وهجاء النابغة الجعدي لليلي الأخيلية جنسيًا[97]، ومحاولة الفرزدق إذلال زوجته النوار لنقدها له بكونها أنثى خاضعة لفعله الجنسي بها[98].

وإذا كان بعض الباحثين يرون أن هذه النزعة النقدية النسوية التي واجهت بها المرأة العربية الناقدة قديما تقاليد شعر الغزل والنسيب قد أرست جملة من السمات والخصائص النقدية التي اعتمدها الشعراء والنقاد قديما للغزل والنسيب، قائمة على تليين ذلك الشعر وترقيقه والوفاء لعلاقات الحب والخضوع للمحبوبة والتذلل والتضرع بين يديها[99]، فإن باحثين آخرين قد رأوا أن بعض العلماء قديما قد أدركوا مثل هذه النزعة النسوية فتناولوها في كتبهم ومؤلفاتهم ومقولاتهم، فابن طيفور (ت 285) كان يسعى في كتاب (بلاغات النساء) إلى تقديم خطاب نسوي مضاد -كما يرى هاشم سرحان– يقوم على الاعتراف بخطابات النساء التي ترتكز على خبرات النساء وتجاربهن الأنثوية (Gynocentric) ويصور (بلاغات النساء) أصوات النساء اللواتي يحتججن على سيطرة الرجال ودعمهم المطلق من المؤسسة الثقافية والاجتماعية[100].

إننا لا نكاد نجانب الصواب إن قلنا إن أولئك الناقدات العربيات اللاتي مثلّن بنقدهن ذي النزعة النسوية جانبا مهما من بواكير النقد العربي القديم للشعر كن يشكلن النخبة من المجتمع الأنثوي القديم، وكن يجسدن الطبقة العليا في ذلك المجتمع (سكينة بنت الحسين، فاطمة زوج عبد الملك بن مروان، عائشة بنت طلحة، أم ولد بشر بن مروان، عزة صاحبة كثير، بثينة صاحبة جميل، النوار زوج الفرزدق، ليلى بنت الحارث البكرية، مي صاحبة ذي الرمة، الخرقاء العامرية، ليلى الأخيلية، أم جندب الطائية، الخنساء تماضر بنت عمرو السلمية، عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب، هند بنت أسماء زوج الحجاج...)، وقد جعلت منهن تلك النخبوية سيدات مجتمع يتصفن بصفات تتجاوز الصورة الراسخة في ذاكرة المجتمع للأنثى؛ لذلك أخذن ينزعن في نقدهن للنوع الأنثوي وينحزن له؛ للرفع من مكانة الأنثى أمام الذكر، فقد كن يشعرن بأن لأنوثتهن صفات خاصة يرغبن في

أن تصعد لها كل أنثى في عصورهن، فقد كان منهن العفيفات النازعات للحرية، والبارزات اللاتي يجالسن الأجلة من قريش من الأدباء والنقاد، ويجتمع إليهن الشعراء، ويحكّمهن الرواة في شعر الشعراء، وكان منهن الظريفات المزاحات اللاتي يجمعن بين التدين والمرح والزهد المسرف والدعابة اللافتة -كما تقول بنت الشاطئ-، وهذا هو الذي شكل مفتاح شخصياتهن[101]؛ لذلك كن قمينات وجديرات بأن نتلمس في نقدهن تلك النزعة النقدية النسوية التي شكلت خطابهن النقدي الأدبي المثقل بالذاتية والإعلاء من شأن الذات/ الأنثى، المثقل بالانحياز للنوع والجنس الأنثوي، والمجسد لخطابهن النقدي النسوي.

الخاتمة:

إن هذا البحث القائم على الدرس التحليلي والتأويلي لتلك المقولات النقدية ذات النزعة النسوية للمرأة العربية الناقدة في بواكير نقدنا العربي القديم، قد بذل جهده لتحقيق الغايات والأهداف التي نهض من أجلها، والتي حاول الإجابة عنها وعن تلك الأسئلة التي طرحها، عند التصدي لدراسة هذه القضية النقدية من خلال مدوناتها النقدية، وقد جاءت النتائج تحمل ما يمكن أن يجلي ويفسر تلك الفرضيات والإشكاليات التي كانت وراء النهوض بهذه الدراسة التحليلية التأويلية، التي حاولت الكشف عن سمات وخصائص ما في تلك المدونات النقدية النسائية من نزعة نسوية تنحاز للأنثى، وتنتصر للجنس والنوع الأنثوي، ومن أبرز نتائج هذا البحث المرئيات الآتية:

1- ظهر أن نقد المرأة للشعر كان في الغالب موجهًا لشعر الرجل الذي يصفها فيه، ويتناول فيه علاقته بها وعلاقتها به، ولذلك حمل في طياته ردة فعل تجاه موقفه منها ووصفه لها إيجابا وسلبا .

2- أن النزعة النسوية التي ظهرت في نقد المرأة العربية للشعر كانت موجهة للشعر الذي كان يصف فيه الرجال النساء حبا أو بغضا، وأن ذلك الخطاب النقدي النسوي كان متأثرا بموقف الشاعر من المرأة في شعره، فإن أظهر الخضوع لأنوثتها والتذلل بين يديها، والاحترام

لها، وعاملها بذوق رفيع ولطف، فالحكم من المرأة الناقدة لهذا الشاعر بالجودة في الشعر والتقدم في شاعريته، وإن كان الشاعر لا يُظهر تذلله وخضوعه لها، أو أنه لم يعاملها بذوق رفيع ولطف أو أظهر في شعره ما لا يحترم أنوثتها، فالحكم يكون منها غالبًا بعدم جودة شعره، ويكون صادرا عن انتصارها لأنوثتها، وتأكيدها لتلك الأنوثة في نوع من النقد النسوي المنحاز للنوع والجنس، الذي تحاول فيه استعادة ذاتها، فترمي شعره بالضعف والقصور عن الجودة، وتقبحه لسوء خلقه مع المرأة الموصوفة في شعره.

3- أن نقد المرأة لشعر الرجل كان متأثرا بطبيعة علاقة الشاعر -بوصفه ذكرا- بالمرأة –بوصفها أنثى- إيجابا وسلبا، وليس بقدرات الشاعر الفنية، ولا بجودة شاعريته وحسنها، وكأن مكوناتها النقدية صادرة عن حالتها النفسية والشخصية تجاه صورتها في الشعر، وليس صادرا عن القيم الفنية الجمالية - في الغالب - التي يوزن بها الشعر، ويحاكم وفقا لها.

4- أن نقد المرأة النسوي نقد يصدر عن مضامين الشعر أكثر من صدوره عن قيم الشعر الفنية، بمعنى أنه نقد يهتم بالمضمون أكثر من اهتمامه بالشكل الفني للشعر، فهو نقد غالبًا ما يدرس جماليات الشعر على حساب الرضى بمضامينه.

5- أن النزعة النسوية التي رأيناها لدى الناقدات العربيات، في بواكير النقد العربي القديم، كانت نقدا واقعا في رهن الأبعاد الايدلوجية للمرأة القائمة على الانتصار والانحياز للنوع والجنس الأنثوي؛ ولذلك ضعفت الجوانب الفنية فيه لصالح الجوانب المضمونية.

6- تبدى أن الناقدة ذات النزعة النسوية غالبًا ما تقع في التناقض النقدي فتحكم للشاعر بالجودة فيما يرضي أنوثتها فيه، ثم ما تلبث أن تحكم عليه بعدم الجودة فيما لا يرضي أنوثتها من شعره، كما هو حال نقد سكينة بنت الحسين لجرير، وعزة لكثير.

7- أن الشاعر عندما يتعرض للنقد ذي النزعة النسوية فإنه غالبًا ما يحاول أن يواجه ذلك بأن يقتص من الناقدة بإبراز ذكوريته والتأكيد عليها في مواجهة نسوية الناقدة الواضحة في

نقدها له، فيهجوها في أنوثتها كما ظهر ذلك بين امرئ القيس وزوجه أم جندب، والفرزدق وزوجه النوار، وذلك لكبح نسوية الناقدة والانتصار لذكوريته.

8- -أن الناقدة في نقدها النسوي تحاول أن تستعيد حقوقها الوصفية التي ترى أن الشاعر قد هضمها في شعره لإبراز ذكوريته؛ ولذلك كانت تقتص لأنوثتها من ذكوريته حينًا، وحينًا آخر من ذكورية المجتمع الذي تغلغلت في أعماقه عقدة نقص الأنثى في مواجهة الذكر، والنظرة المتعالية تجاه الأنوثة في مواجهة الذكورة.

9- أن المقولات النقدية النسائية العربية في بواكير النقد ذات النزعة النسوية كانت بمثابة العباءة التي تخفي تحتها الناقدة ما كانت تشعر به من نظرة دونية تجاهها من المجتمع بعامة، وميل نحو الذكر بخاصة، وحاولت بنقدها النسوي لشعر الرجل أن تعدل ذلك الميل، وتستعيد حقوقها بالانتصار للأنوثة من الذكورة في شكل من أشكال النقد ذي الطابع النسوي المنحاز للذات الأنثوية.

10- أن النقد النسائي للمرأة العربية ذي النزعة النسوية كان تعويضا عن إقصاء المجتمع للمرأة، وإعراضها عن الشعر الذي كان في أغلبه حكرا على الفحول (الذكور)، ولذلك فقد فرضت المرأة سيطرتها على الخطاب النقدي، وقد ارتضاها الشعراء الفحول في حكوماتهم النقدية حكمًا بينهم.

11- أغلب الناقدات ذوات النزعة النسوية في بواكير النقد العربي القديم كُن من الطبقة العليا في المجتمع العربي سواء في الجاهلية أم في الإسلام، من أمثال: أم جندب الطائية، والخنساء تماضر بنت الشريد، وسكينة بنت الحسين، وعقيلة بنت عقيل بن أبي طالب، وعائشة بنت طلحة، وفاطمة زوج عبد الملك بن مروان، وبثينة صاحبة جميل، وعزة صاحبة كثير، والنوار زوج الفرزدق، وغيرهن من سيدات ذلك المجتمع القديم من عمر النقد العربي.

12- أن النقد النسوي لأولئك الناقدات المتقدمات في تاريخ النقد العربي في قرونه الثلاثة الأولى كان خطابا نقديا أقرب إلى الانحياز للذات والأنثى والنوع والجنس الأنثوي منه إلى النقد

النسوي بمفهومه الأيديولوجي المعاصر، لكنه لا يخلو من منطلقات أساسية صادرة عن الجنس والنوع، يشترك فيها مع النقد النسوي المعاصر، أو يمثل حالة من حالاته.

الهوامش والإحالات:

([1]) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 344/1. الأصبهاني، الأغاني: 156/1، 157، 166، 190، 192، 214، 216. 327/3. 16/5، 17. 29/18. الأفطسي، المجموع اللفيف: ٢٩١- ٢٩٤. المرزباني، الموشح: 184-178، 190، 205. القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 405-407. القارئ، مصارع العشاق: 30/2. القالي، الأمالي: 2/ 58، 59. طيفور، بلاغات النساء: 169، 170.

([2]) ينظر: السيف، الرجل في شعر المرأة: 114-116.

([3]) ينظر: نفسه: 120.

([4]) ينظر: المانع، المرأة ونقد الشعر في بداية النقد العربي: 63. صغير، جهود المرأة العربية في النقد الأدبي القديم: 383. السيف، الرجل في شعر المرأة: 114- 116، 120.

([5]) ينظر: المانع، المرأة ونقد الشعر في بداية النقد العربي: 63. الأصبهاني، الأغاني: 357/1- 360. القارئ، مصارع العشاق: 2/ 79- 82. المرزباني، الموشح: 200، 201.

([6]) ينظر: القيرواني، زهر الآداب: 4/ 999.

([7]) الرويلي، والبازعي، دليل الناقد الأدبي: 166.

([8]) إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب: 25.

([9]) خشبة، مصطلحات فكرية: 34.

([10]) رافو رالو، مناهج النقد الأدبي: 117.

([11]) ينظر: جاد، إصلاح، وآخرون، النسوية العربية: 90.

([12]) ينظر: ابن منظور: 1/ 361. الزمخشري، أساس البلاغة: 114.

([13]) خشبة، مصطلحات فكرية: 281.

([14]) جاد وآخرون، النسوية العربية رؤية نقدية: 166.

([15]) مجموعة من الباحثين والباحثات، النقد الأدبي النسوي: 10- 20..

([16]) ينظر: علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: 83، 84.

([17]) ينظر: مجموعة من الباحثين والباحثات، النقد الأدبي النسوي: 11.

([18]) نفسه: 12.

([19]) علوش، معجم المصطلحات العربية المعاصرة: 83، 84.

([20]) جاد وآخرون، النسوية العربية رؤية نقدية: 160.

([21]) ينظر: الرويلي، والبازعي، دليل الناقد الأدبي: 160، 161. مجموعة من الباحثين، النقد الأدبي النسوي: 9.

([22]) ينظر: نولف، وآخرون، موسوعة كمبيردج في النقد الأدبي الكلاسيكي: 301، 307. مجموعة من الباحثين، النقد الأدبي النسوي: 19.

([23]) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 1/ 74.

([24]) ينظر: مجموعة من الباحثين، النقد الأدبي النسوي: 13.

([25]) بن مسعود، المرأة والكتابة: 5.

([26]) الرويلي، والبازعي، دليل الناقد الأدبي: 162.

([27]) ينظر على سبيل المثال: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 344/1. الأصبهاني، الأغاني: 156/1، 157، 166، 190، 340/9.

([28]) ينظر: مجموعة من الباحثين، النقد الأدبي النسوي: 21.

([29]) ينظر: نفسه: 14، 16، 17.

(30) الأصبهاني، الأغاني: 340/9.

(31) جاد إصلاح وآخرون، النسوية العربية رؤية نقدية: 90.

([32]) ينظر: بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي: 806- 808.

([33]) ينظر: مبارك، الموازنة بين الشعراء: 11.

([34]) ينظر: القارئ، مصارع العشاق: 82/2، 83. الأصبهاني، الأغاني: 8/ 38، 39، 21/ 366، 367.

([35]) الأصبهاني، الأغاني: 38/8.

([36])نفسه، الصفحة نفسها. المرزباني، الموشح: 201.

([37]) القارئ، مصارع العشاق: 80/2.

([38]) المرزباني، الموشح: 193.

([39]) بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي: 950.

([40]) المرزباني، الموشح: 201.

([41]) الأصبهاني: 21/ 366، 367. القارئ، مصارع العشاق: 83/2.

([42]) الرويلي، والبازعي، دليل الناقد الأدبي: 161.

([43]) مبارك، الموازنة بين الشعراء: 11.

(44) الأصبهاني، الأغاني: 16/ 161- 165. مبارك، الموازنة بين الشعراء: 11-13.

(45) نفسه: 13.

(46) نفسه: 12.

(47) مبارك، حب بن أبي ربيعة: 119.

(48) ينظر: نفسه، الصفحة نفسها.

(49) نفسه: 120.

(50) الأصبهاني: 16/ 161، 162، 21/ 366، 367. القارئ، مصارع العشاق: 2/ 82-84.

(51) القارئ، مصارع العشاق: 2/ 82-84. الأصبهاني، الأغاني: 16/ 163.

(52) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 16/ 164، 165.

(53) ينظر: مبارك، الموازنة بين الشعراء: 14.

(54) ينظر: نفسه: 11، 12.

(55) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 16/ 170، 171، 21/ 366، 367. القارئ، مصارع العشاق: 2/ 82، 83.

(56) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 16/ 159.

(57) بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي: 947، 948.

(58) كثير عزة، ديوانه: 405.

(59) ينظر: بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي: 948، 949.

(60) الأصبهاني، الأغاني: 2/377.

(61) نفسه: 3/ 327. طيفور، بلاغات النساء: 164.

(62) جاد، وآخرون، النسوية العربية، رؤية نقدية: 88.

(63) المرزباني، الموشح: 195.

(64) الأصبهاني، الأغاني: 2/ 28.

(65) المرزباني، الموشح: 190.

(66) نفسه: 184.

(67)الأصبهاني، الأغاني: 4/ 153، 162.

(68) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 1/387، 3/342. القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 2/598.

(69) ينظر: القالي، الأمالي: 2/ 58، 59. القارئ، مصارع العشاق: 2/30.

(70) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 18/ 36، 37.

(71) ينظر: نفسه: 18/ 37.

(72) نفسه: 18/ 41.

(73)نفسه: 18/ 29.

(74)نفسه: 21/ 286-291.

(75)نفسه: 21/ 297، 298.

(76) المرزباني، الموشح: 136. وينظر: صغير، جهود المرأة العربية في النقد الأدبي القديم: 385.

(77) المرزباني، الموشح: 136.

(78) ينظر: الرويلي، والبازعي، دليل الناقد الأدبي: 162.

(79) ينظر: القارئ، مصارع العشاق: 2/ 188.

(80) ينظر: نفسه: 2/ 187.

(81) ينظر: الأفطسي، المجموع اللفيف: 292.

(82) نفسه: 293.

(83) نفسه: 293. كثير عزة، ديوانه: 136، 137.

(84) كثير عزة، ديوانه: 65. وينظر: عباس، محاولات في النقد والدراسات الأدبية: 3/ 120.

(85) ينظر: القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 405-407. المرزباني، الموشح: 189.

(86) ينظر: القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 405-407.

(87) المرزباني، الموشح: 205.

(88) الأصبهاني، الأغاني: 7/ 21.

(89) نفسه: 7/ 21.

(90) ينظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر: 3/ 186- 188.

(91) ينظر: نفسه: 3/ 187.

(92) ينظر، نفسه: 3/ 194- 196.

(93) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 1/ 71، 77، 85، 86، 95، 172.

(94) القارئ، مصارع العشاق: 2/ 133.

(95) نفسه: 2/ 134.

(96) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 3/ 219، 220.

(97) ينظر، طيفور، بلاغات النساء: 169، 170.

(98) ينظر، الأصفهاني، الأغاني: 21/ 288، 297- 299.

([99]) ينظر، صغير، جهود المرأة العربية في النقد الأدبي القديم: 386. السيف، الرجل في شعر المرأة: 120. القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 405، 406.

([100]) سرحان، خطاب الجنس: 107.

([101]) ينظر: الأصبهاني، الأغاني: 6/ 43، 16/ 143. بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي: 805، 806. القارئ، مصارع العشاق: 2/ 133. المسعودي، مروج الذهب ومعدن الجوهر: 3/ 132، 133. ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 219/3، 220. القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب: 4/ 999.

قائمة المصادر والمراجع:

1) إسكاربيت، روبير، سوسيولوجيا الأدب، ترجمة آمال أنطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط3، 1999م.
2) الأصبهاني، علي بن الحسين، الأغاني، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة جمال للطباعة والنشر، مصورة من طبعة دار الكتب، بيروت، د.ط، د.ت.
3) الأفطسي، محمد بن محمد بن هبة الله، المجموع اللفيف، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005م.
4) ابن مسعود، رشيدة، المرأة والكتابة - سؤال الخصوصية بلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 2000م.
5) جاد، إصلاح، وآخرون، النسوية العربية - رؤية نقدية، تحرير: جين سعيد المقدسي، ورفيق رضا صيداوي، ونهى بيومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012.
6) كثير عزة، كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، ديوانه، جمع وشرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1971م.
7) خشبة، سامي، مصطلحات فكرية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994م.
8) رافو رالو، إليزابيت، مناهج النقد الأدبي، ترجمة: الصادق قسومة، دار سيناتر والمركز الوطني للترجمة، تونس، ط1، 2010م.
9) الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1995م.
10) الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة بيروت، د.ط، 1979م.
11) سرحان، هيثم، خطاب الجنس - مقاربات في الأدب العربي القديم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2010م.
12) السيف، عمر بن عبدالعزيز، الرجل في شعر المرأة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2008م.

13) بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، موسوعة آل النبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1967م.
14) صغير، فاطمة، جهود المرأة العربية في النقد الأدبي القديم، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر،
15) ع10، 2014م
16) ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، تعليق: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة د.ط، 1918م.
17) عباس، إحسان، محاولات في النقد والدراسات الأدبية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م.
18) علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985م.
19) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1958م.
20) القارئ، جعفر بن أحمد السراج، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت، د.ط، د. ت.
21) القالي، إسماعيل بن القاسم، الأمالي، ومعه الذيل والنوادر والتنبيه، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
22) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: زكي مبارك، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972م.
23) المانع، سعاد بنت عبد العزيز، المرأة ونقد الشعر في بدايات النقد العربي - قراءة لنصوص النقد المنسوبة إلى سكينة بنت الحسين، نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، السعودية، ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2014م.
24) مبارك، زكي، الموازنة بين الشعراء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، 2012م.
25) مبارك، زكي، حب بن أبي ربيعة، مؤسسة هنداوي، القاهرة، د.ط، د.ت.
26) المرزباني، محمد بن عمران، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.
27) مجموعة من الباحثين، النقد الأدبي النسوي، تحرير وترجمة: هالة كمال، سلسلة ترجمات نسوية (5)، مؤسسة المرأة والذاكرة، مصر، ط1، 2015م.
28) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م.
29) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
30) نولف، ك، وآخرون، موسوعة كمبيردج في النقد الأدبي الكلاسيكي - القرن العشرون، المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005م.